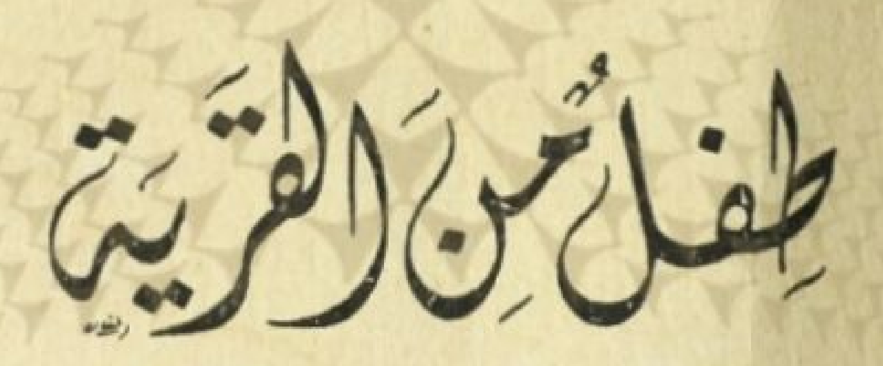
سيّد قطب



الدّار السّعوديّة للنشر



طفل من القرية


بسم الله الرحمن الرحيم

سيد قطب







الإهداء

إلى صاحب كتاب الأيام... الدكتور طه حسين بك.

إنها يا سيدي أيام كأيامك، عاشها طفل في القرية . في بعضها من أيامك مشابه، وفي سائرها عنها اختلاف .

اختلاف بمقدار ما يكون بين جيل وجيل، وقرية وقرية، وحياة وحياة . بل بمقدار ما يكون بين طبيعة وطبيعة، واتجاه واتجاه ...

ولكنها – بعد ذلك كله – أيام من الأيام !

سيد قطب

١ – ٧ – ١٩٤٥

المقدمة

هذه صور من حياة القرية عاصرت طفولتي منذ ربع قرن من الزمان، لم أنمق فيها شيئاً، ولم أصنع أكثر من نقلها من صفحة الذاكرة إلى صفحة القرطاس.

قليل من هذه الصور قد زال الآن وحلّت محله صور جديدة... وفي تسجيله هنا احتفاظ بصفحات من الحياة القومية والتاريخ الحديث في سجل الفنون.

والكثير منها لا يزال يعيش، ولكن أهل المدينة المترفين لا يكادون يتصورونه، لا في عالم الواقع ولا في عالم الخيال... وفي تسجيله هنا ما يطلع الجيل الجديد على صور من الريف القومي بخيرها وشرها. لعل لهم رأياً فيما ينبغي أن يبقى منها وما ينبغي أن يزول!



المجْذوبٌ

مضى على هذه الأحداث أكثر من ربع قرن، ولكنه لا يستطيع اليوم أن يسترجع صورتها دون أن يحس في جسده بقشعريرة تتخلل عظامه في صمت، كأنما استحال دمه إلى ماء مثلوج:

هذا الرجل المشعث الشعر، الممزق الثياب، العاري أحياناً من كل ما يستر الجسد، المنطلق في شوارع القرية وطرقاتها، وفي يده عصاه ينال بها كل شيء وكل أحد، وهو يرسل همهمة مختلطة مخيفة، أو يقهقه في صوت عال مرهوب!

كان هو طفلا دون السادسة حينما أخذ الناس يتهامسون في القرية عن «الشيخ النقيب»، وسمعهم يقولون: إنه أخذ «الشربة» وأنها ثقيلة عليه...

«الشربة»؟ إنه يعرفها جيداً، فإنه ما يزال يذكر أن الحمى أخذته في ذات يوم، فجرعوه ذلك السائل المر الكريه الطعم والرائحة، بكل وسائل الإغراء والتهديد. ثم كان بعد ذلك ما لا بد أن يكون!

ولكن هذا الرجل: «الشيخ النقيب» ما بال «الشربة» تحيله هكذا شيطاناً مشرداً مروعاً، مسلوب الرشد، شارد النظرات، غريب الأطوار؟ وأية «شربة» تلك التي تفعل بالناس «الأفاعيل»؟

كان الرجل يمزق ثيابه تمزيقاً؛ ثم يتمرغ في الوحل، أو يهيل

على رأسه التّراب وعلى جسده العاري، حتى يكتسي أديمه من التّراب والوحل ثوباً آخر غير الثوب الممزق المخلوع !

وكان ينطلق في طرقات القرية صائحاً بصوت مجلجل مرعب : الله . الله . الله . أو يسير في خطوات متوانية وهو يهمهم ويزوم : إي . إي . إي ... أو ينفخ صدره بالهواء، ويقب ويغطس بقامته وهو يقول : حيْ . حيْ . حيْ . كما كان في كثير من الأحيان يأوي الى « مصطبة » أو ركن، فيقبع هناك في صمت مطبق كأنما هو «مبنّج» لا يأتي جسده بحركة، ولا تطرف عينه بنظرة ... ويبقى على ذلك الساعات الطوال في بعض الأحيان .

فما بال « الشربة » إذن وهذا كله في نفس الطفل الصغير ؟

لقد عرف فيما بعد أنها « شربة الولاية » ! وأن كبار الأولياء الصالحين يجتمعون في كل عام برياسة « قطب الغوث» على جبل قاف، ثم ينظرون في أحوال العالم، ويقضون فيه بما يشاءون !

وعلم أن من قضائهم توزيع « الشّرَب» على من يقع عليهم الاختيار من عباد الله المختارين . فتارة تصيب « القرْعة » رجلا طيباً وديعاً، وتارة تصيب رجلا قاسياً عنيداً . فيستحيل هذا أو ذلك « مجذوباً » . فأما الأول فتكون شربته هادئة، فيسهل عليه قضاء فترة « الانجذاب » ويجتازها بسلام إلى مرتبة «الولاية»، وأما الآخر فتكون شربته عنيفة، فيعاني الشدائد في قضاء هذه الفترة القاسية، حتى تطهر نفسه، ويلين طبعه، وتصفو روحه، وعندئذ ينتقل إلى المرحلة التالية، فيهدأ ويطمئن !

وسمع كذلك تفسيراً ثانياً لشدة الشربة وسهولتها :

فلقد يرجع الهدوء والاضطراب إلى مقدار «الشربة» . فتارة تكون الجرعة كبيرة، فيتلقاها صاحبها في جهد واضطراب، لأنها تتجاوز طاقته ؛ ويظل يعاني سكراتها وصرعاتها أمداً طويلا، وجسده يتمزق وقواه تضطرب، حتى يكتب الله له السلامة في النهاية، فإذا هو في مرتبة رفيعة في ديوان الأولياء !

وتارة تكون الجرعة صغيرة، فلا يجد صاحبها جهداً ولا مشقة في تقبلها ؛ ولا تطول فترة الانجذاب إلا ريثما تستقر الشربة وتهدأ . وإذا صاحبها ولي ؛ إلا أنه متأخر في الديوان !

• • •

ولكن ألف تفسير وتفسير لم تكن كافية لبعث الطمأنينة في قلب الطفل الصغير.

لقد كان يسير هو ورفاقه أو منفرداً، فما يدرون من أين طلع عليهم « الشيخ النقيب » !

ولكنه يدري أن ريقهم كان يجف، وأقدامهم كانت تتسمر في الأرض حينما « يهل » عليهم من أول الطريق، ولو كان بينه وبينهم عشرات الأمتار .. كانت أرجلهم تكف عن الحركة، وأنظارهم تتعلق به فلا تطرف، وقلوبهم تدق في عنف ورعدة، ولكنهم لا يتحركون !

كانوا أشبه شيء بتلك العصافير المسكينة التي تقف أمام الثعبان

منومة، وهي تدرك أنه سيلقفها ولا تطير... أو كالفئران الصغيرة أمام القط الذي يسحرها قبل أن يثب عليها للافتراس .

ذلك أنهم كانوا يعلمون ألا فائدة من محاولة الفرار .

لقد قيل لهم : إن الشيخ « يُخطِّي » فلما طلبوا تفسيراً لهذه « التخطية » فهموا أنه ينتقل بخطوة واحدة في كل يوم من أيام الجمعة من القرية إلى الكعبة، فيصلي الجمعة هناك مع الأولياء والصالحين، ثم يعود !

وكانوا قد سمعوا الكثير عن طول الطريق إلى الحج ومشقتها وكان الحج يومذاك على ظهور الجمال بعد عبور «البحر المالح »... ثم ها هو ذا الشيخ يقطع الطريق الطويل الوعر في خطوة واحدة، خطوة في الذهاب وأخرى في الإياب ..

فما جدوى الجري إذن والفرار، و « فركة كعب » تجعلهم في متناوله من جديد ؟

وكانوا قد سمعوا أن العصا المخيفة في يد الشيخ تطول وتقصر كيفما أراد، وأن يده كذلك تتناول ما تشاء من قريب أو من بعيد، حينما يريد .

فما جدوى الجري إذن والفرار ؟ وهذه العصا كفيلة أن تلهب ظهورهم وأن تقصم أضلاعهم، والرجل في مكانه لا يتكلف الخطو خلف خطواتهم القصار ؟

لا، بل قد سمعوا أنه يستطيع ان «يسمِّرهم»، في مكانهم إذا أراد. أو لم «يسمِّر» من قبلُ شيطاناً مريداً كان يخيف الناس في طريق من طرق القرية؛ وظل هذا العفريت «مسمراً» حتى الفجر، فأخذ يستغيث بالشيخ ويستجير، ويستميحه العذر والصفح، ويبذل الوعود بأن يغادر هذه القرية كلها، فلا يتعرض لأهلها بسوء... فلم يطلقه الشيخ حتى أخذ عليه العهود والمواثيق، وهدده بسوء المصير إن هو أخلفها... ومن يومها لم يعد العفريت يظهر في ذلك المكان؟!

فهل هم أسرع من العفاريت وأقوى؟

لا فائدة .. لا فائدة!

ولكن قلوبهم تكاد تسقط، ومفاصلهم تكاد تسيب، وريقهم قد جف، فلم يعد فيه ما يكفي لتحريك اللسان. وهم يجمعون هذا الريق ويبلعونه لتطرية حلوقهم من هذا الجفاف. وعيونهم شاخصة إلى الرجل الهائل الرهيب!

ثم يمر...

فإما أن ينحرف قبل أن يجتاز بهم في طريق من طرق القرية الملتوية الكثيرة... وعندئذ يتنفسون الصعداء، ويستجمعون ما بقي فيهم من قوة، ثم يطلقون سيقانهم للريح، وهم يلهثون في ذعر مميت. وإما أن يلحقهم، فيتجمع المساكين ويتكتلون، ويخنس بعضهم في بعض كالفراريج الصغيرة حينما يهاجمها القط الجارح،

أو ابن عرس، ثم يتقربون اليه في تملق يطلبون تقبيل يده، وأعينهم مرتفعة شاخصة الى العصا الرهيبة في يده ... فطوراً يسلمون، وطوراً يذوقون جناها المستطاب !

وطالما سمعوا من الكبار أن هذه العصا من شجرة في الجنة. وهم يرونها أمامهم قطعة من جريد النخل الذي يعرفون. أو أنها غمست سبع مرات في بئر زمزم، وأن من نالته منها ضربة فهو السعيد السعيد، فإنها لا تتناول إلا عضواً «مضروراً» أي مريضاً — ولو لم يشعر صاحبه بمرضه ! — فما إن تمسه هذه العصا حتى يبرأ من كل داء !

وكانوا يرون بعض الرجال يتعرضون للشيخ في الطريق، ويتحككون به إن كان هادئاً حتى يثور، لينالوا ضربات من هذه العصا على ظهورهم غالباً، فقد كانوا يتوقّون أن تنال وجوههم ورؤوسهم ! ، ثم يذهبون راضين، يدارون الألم الذي يشعرون به، ليقرروا أنهم لم يحسوا بالعصا إلا كطائف من النعيم !

أما هم، الأطفال، فيعرفون جيداً طعم هذا الطائف السماوي! إن ظهورهم لتتقلص تحت وقع هذه العصا الملعونة، وإنهم ليحاولون أن يتظاهروا بما يتظاهر به الرجال فلا يطيقون !

على أن هيئة الرجل ذاتها، ونظراته وصوته وحركاته كانت كفيلة ببعث الرعب في قلوبهم من حيث لا يشعرون.

وكان الطفل يعجب لشيء آخر غير ما يدّعيه الرجال من لذاذة

هذه العصا وطراوتها . إن الرجل يقضي معظم أوقاته عاريا، وقد تلبد شعر جسده ورأسه، و «تعرقص» كجلد الفيل ... ومع هذا فإنه لم يلحظ غضاضة من رجل، ولا حياء من امرأة، لرؤية هذا الجسد العاري القذر الأديم !

ولما كان دائم السؤال، فقد قيل له : اسكت . إنه لم يعد إنسانا مثلنا . لقد ارتفع عنه التكليف ! إنه الآن موهوب للولاية ، فلم يعد من عالم الأرض الذي نعيش فيه !

• • •

ثم مرض ... كان يلعب لعبة تقتضي ليّ الجسم وتحريك العنق إلى الخلف ، فأصيبت مفاصل عنقه بانحراف ، ومالت رأسه إلى أحد كتفيه . فأصبح لا يستطيع أن يحرك رقبته إلا في اتجاه واحد ، فإذا أراد النظر أو الالتفات اضطر أن يدور بجسده كله ، كما تصنع الضبع عندما تدور !

وطال المرض وكثرت «الوصفات» وبدأ أهله يقلقون عليه من هذه العاهة التي بدا أنها ستكون مستديمة ، وأخذ الأطفال زملاؤه يرثون لحاله في أول الأمر ... ولكنهم بعد حين أخذوا يتغامزون عليه ، ويقلدون هيئته الشاذة في غفلة منه ، ثم يضحكون.

وود لو يجد علاجاً لهذه الحالة المؤلمة بأي ثمن يكون .

ودخلت إحدى النساء فرأته ؛ ثم توجهت إلى والدته بالكلام .

قالت : أو تسكتين يا امرأة على الولد هكذا ؟

قالت في تأثر شديد : ــ وماذا نصنع ؟ لقد حاولنا كل شيء بلا فائدة .

قالت لها : أنا أدلّك على الحل الوحيد.

ونظرت إليها الأم ملهوفة ــ ونظر هو أيضاً ــ قالت : تدعينه ليلة للشيخ النقيب !

ولم تفهم الأم ــ ولم يفهم هو في بادئ الأمر ــ ولكن المرأة أزالت كل لبس، وهي تقول :

واحد من العائلة، يتبع خطوات الشيخ، ويعرف أين يبيت ويضع الولد بجانبه، ويتركه للصبح، فيصبح في عافية !

ماذا ؟

لقد قفّ شعر رأسه، واقشعر بدنه، وهو يسمع هذا الاقتراح الرهيب . هو يبيت ليلة كاملة إلى جوار هذا الرجل الغريب ؟ ولماذا لا يذهب إذن إلى جحر الثعبان، أو عرين الأسد... بل لماذا لا يلقى الشيطان وجها لوجه ؟ أم انه هو مجنون ؟ !

ومع أنه لم يصدق لحظة واحدة أن هذا كلام صحيح، وأن المرأة تجدّ فيما تقول : إلا أنه لا يذكر أن شيئاً من الرعب قد داخل كيانه كله طوال حياته مثلما داخله وهو يسمع هذا المزاح المرذول !

ومع أنه كان واثقاً بأنه لن ينفذ هذا الاقتراح، حتى لو استخدموا معه أضعاف ما استخدموه ليتناول «الشربة» من الإغراء والوعيد ... إلا أن نظره تعلق بشفتي أمه، كالذي ينتظر حكم الإعدام أو البراءة.

وابتلع ريقه وتنفس ببطء نفساً عميقا ... وأمه تقول : لا. لا . وهل أنا جننت حتى أبيّت ولدي جنب المجذوب ؟ الأمر لله والكائن في علمه يكون !

ولم يكن إلا الخير والبركة ... ولكنه لا يزال يذكر هذه اللحظة ولا ينساها مهما تطاولت به السنون ...





ضابط الجمباز

نشأ في أسرة ليست عظيمة الثراء، ولكنها ظاهرة الامتياز ... كانت في وقت من الأوقات عظيمة الثروة. ولكنها توزعت، وتضاءلت الثروة بالميراث، وبقي لوالده قدر لا بأس به منها، ولكنه كان يتناقص دائماً ... كان والده قد صار عميد الأسرة المكلف حفظ اسمها ومركزها، في الوقت الذي لم ينله من الميراث إلا نصيب محدود، لا ينهض بما كانت تنهض به ثروة الأسرة مجتمعة، على حين لا يستطيع أن ينقص شيئاً من تكاليف المظهر في الريف.

وكان هو بعد هذا متلافاً مضيافاً، فزاد ذلك في التكاليف التي لا تحتملها ثروته، ولكنه حافظ على كل المظاهر والمطالب إلى اللحظة الأخيرة!

وكانت والدته من أسرة مماثلة أو أعرق، وقد وقع لها ما وقع لأسرة الوالد حرفاً بحرف ... ولكن زاد عليها أن اثنين من أخواله كانا قد أوفدا إلى الأزهر في القاهرة، شأن غالبية أبناء الأسر الريفية الثرية. فأنشأ هذا في الأسرة نوعاً من الرقي العلمي، بجانب الوجاهة الريفية!

يضاف إلى هذا كله أن جده لوالدته كان قد قضى شطراً كبيراً من حياته في القاهرة هو وزوجه، حتى إذا عاد إلى القرية أنشأ فيها بيتاً يقرب من بيوت العاصمة على قدر الإمكان، في نظامه وتنسيقه وتقاليده ومستواه. وساعده المال على تحقيق ما أراد.

في هذه البيئة نشأ، وكل ما حوله يشعره أنه من وسط آخر غير وسط القرية .

فلما ناهز السادسة من عمره فكّر أهله في أن يبدأ حياة التعليم، وانقسم الرأي : فريق يؤيد ذهابه إلى «الكُتّاب» ليحفظ القرآن ويفوز بالبركة التي يفوز بها من يحملون كتاب الله على قلوبهم ! وفريق يؤيد ذهابه إلى المدرسة الأولية، لأنها أرقى وأنظف، والقرآن يعلّم فيها كذلك إلى جانب العلوم الأخرى... وطال الجدل حوله وهو لا يدري ... وأخيراً انتصر فريق المدرسة، واستقر العزم عليها، وأُخبر هو بهذا القرار فتلقاه بالقبول، ولكن بغير حماسة ظاهرة فقد كان أروح لنفسه أن يظل في الدار يلعب مع أخته التي تكبره قليلا، أو يلعب في الشارع مع لداته الصغار .

وكان مدللاً بعض الشيء لأنه وحيد أبويه بجانب بنتين هو أوسطهما فلم يتعود بعد التكاليف التي لا مفر منها في التعليم، ولاسيما أنه يسمع الناس يتحدثون بأن الكتّاب «يقرص» الأولاد . أي يضعف صحتهم، ويعوق نموهم . أما المدرسة فقد كان يسمع عنها حديثاً آخر لا يجعله آمناً فيها على العموم !

ولم تمض أيام حتى هيء للمدرسة . جيء له بطربوش بعد أن كان يلبس «الطاقية» واشتري له حذاء جديد بدل حذائه الذي كان «نصف عمر» وفصّل له «قفطان» صغير من «الشاهي» بدل الجلابية . وكان هذا زياً مبتكراً لا عهد للمدرسة به . جيء له به للترغيب والتدليل .

وكان لهذا كله أثر حاسم في اتجاهه للمدرسة، فبسببها كان كل هذا «العزّ» والتكريم!

وفي الصباح الأول ذهب به والده ومعه صديق له إلى المدرسة... ولهذه المدرسة تاريخ:

كانت «الكتاتيب» هي دار العلم الوحيدة في القرية، حتى افتتح مجلس المديرية هذه المدرسة، ووكل أمر التعليم فيها إلى فقيه وعريف. فأما الفقيه فكان من أهل بلدة مجاورة حفظ القرآن كما يحفظه القرّاء، ثم حضر دروساً نظمتها الوزارة في الحساب والمعلومات العامة وطرف من التربية؛ ثم عين فقيهاً للمدرسة. وأما العريف فهو أحد حفاظ القرية وصاحب كتّاب فيها، وقد عينه المجلس عريفاً ريثما تخرج مدارس المعلمين الأولية العدد الكافي ليحل محل الفقهاء والعرفاء.

وهذا العريف كان موضع الثقة من أهل القرية، فأبوه هو الذي علّم في كتّابه شيوخها، واسمه مذكور دائماً على أنه مثال الشدة والإخلاص. والشدة في معاملة الأبناء كانت مناط الثقة من الآباء. فلما توفي أبوه تولى هو وأخوه إدارة الكتّاب متبعين تقاليد أبيهما فيه. حتى إذا اختير للمدرسة ورسم له مرتب قدره مئة وخمسون قرشاً، وَكَلَ أمر الكتّاب إلى أخيه، وذهب هو إلى المدرسة كي يجمع إلى كسب الكتّاب كسب المدرسة، وإن خسر بضعة تلاميذ اجتذبتهم المدرسة إليها بوصفها شيئاً جديداً!

ولم تؤثر المدرسة على الكتاتيب في حقيقة الأمر، ذلك أنه لم يذهب إليها إلا أولئك الذين فشلوا في حفظ القرآن في «الكتّاب» وبلغوا

طور المراهقة أو تجاوزوه ... فلما فتحت المدرسة أرسلهم أهلوهم إليها أو جاءوا هم بأنفسهم للفرجة على الأكثر، أو لإعادة المحاولة مع الأمل الضئيل !

ولما كانت المدرسة في حاجة إلى تأليف قلوب الأهالي والتلاميذ في أول الأمر فإنها قد اتبعت نظاماً عجيباً في تقسيم التلاميذ :

لم تكن درجة العلم والمعرفة هي التي تهيء التلاميذ لإحدى الفرق، ولكن كانت السن هي التي تعين الفرقة الملائمة للتلميذ. فالطوال هم المرشحون للسنة الرابعة، ولاسيما إذا كانت شواربهم قد خطت، ثم يليهم من هم أصغر منهم في السنة الثالثة، وهكذا حتى يصل الأطفال إلى السنة التحضيرية، وهي التي تحضّر للسنة الأولى.

ولكن هذه القاعدة لم تكن تتبع دائماً، فأبناء الأسر المعروفة في القرية كانوا يحتلون مقاعدهم في الفرق العالية، ولو لم تؤهلهم لذلك أجسامهم.

ولم يكن من النادر أن يحضر والد تلميذ ليحتج على وضع ابنه في السنة الأولى بينما ابن فلان في السنة الثانية، وهو ليس أقل منه مركزاً ولا ثروة. فيجاب طلبه في الحال، وينقل الولد إلى السنة المطلوبة حتى لا يخدش شرف العائلة !

وتبعاً لهذه القواعد لم يكن بد من أن يوضع – هو الطفل – في السنة الرابعة من أول يوم، ولا سيما أن ابن خالته في هذه الفرقة، ويحسن أن يجلس معه ليأتنس به !

ولكن ناظر المدرسة أنس من والده شيئاً من التنوّر والمعرفة، فرأى أن يحادثه بصراحة، وأن يبين له أن من مصلحة الطفل أن يبدأ من السنة التحضيرية مع الأطفال ليستفيد ويسير في خطواته طبيعياً... فاقتنع، وتركه للفقيه وللعريف الذي كان معروفاً لدى الطفل جيدا، لأنه هو الذي يقرأ في دارهم القرآن في شهر رمضان !

* * *

انصرف الوالد وصديقه بعد أن سلّماه إلى المدرسة مع التوصية اللازمة، التوصية التي رأى هو آثارها في هشاشة الفقيه وعناية العريف، عناية بلغت حد التدليل.

انصرفا ليعودا اليه قرب الساعة العاشرة يحملان أنواعاً من الفطائر والحلوى أعدتّها أمه بعناية... فلقد كان البيت كله في هذا اليوم مهتمّاً قائماً قاعداً كأن حدثاً جديداً يمر به !

ولكنهما يعودان فلا يجدانه بالمدرسة، ولا في أي مكان !

أما لماذا كان ذلك، فسرُّه عند ضابط الجمباز !

ولا بد من قصة أخرى عن ضابط الجمباز !

لم يكن بد لمجلس المديرية أن يتبع في مدارسه أدق قواعد التّربية ! ولما كانت الألعاب الرياضية جزءاً لا يتجزأ من التّربية، لم يكن بد من أن يزاولها التلاميذ... ولكن الفقيه كالعريف سواء لا

يعرف شيئاً عن هذه الألعاب الرياضية ... وهنا اهتدى مجلس المديرية إلى حل موفق سعيد ... أن يعين أحد جنود الجيش القدامى معلماً للألعاب الرياضية بجميع مدارس مجلس المديرية !

وعلى هذا « الضابط » – كما كان يسمى – أن يطوف بهذه المدارس في القرى المتناثرة في المديرية على مدار العام، فيصادف أن يزور المدرسة مرة في كل سنة، ويصادف ألا يزورها بتاتاً .

ولما كانت قرية الطفل من أرقى القرى المجاورة، وفيها أسرات كثيرة معروفة بحسن الضيافة، وكان هذا « الضابط » يجد عند مجيئه للقرية ضيافة كريمة طول اليوم، واستقبالا رائعاً من أهلها، لمجرد أنه « ضابط » قادم من البندر، بحيث يصبح يوم وجوده في القرية بارزاً له طابع خاص، ومحوطاً بحركات خاصة ... فقد دعاه هذا إلى أن يكرر زيارته لمدرستها مرتين أو ثلاث مرات في العام !

وكانت هناك حركات معهودة يعلمها للتلاميذ هي :

« صَغَادُنْ » أي إلى اليمين . و« صولادن » أي إلى اليسار و « مارش » أي سيراً إلى الأمام . ثم « بِيرْ » أي رفع اليدين بحذاء الصدر . « وِهكْ » أي رفع اليدين إلى أعلى و « إتْش » أي خفض اليدين إلى الجنبين . وهذا يسمى التمرين الأول ... وهناك تمرينات ثلاثة من الألعاب السويدية المعروفة، تؤدى بهذه الإشارات على التوالي حسب التمرين : « بير . هك . اتش » !

والويل كل الويل لمن يخطىء من التلاميذ في حركة من هذه الحركات ... إن عصا الخيزران التي بيده تلهب ظهره وجنبيه !

ثم إن الرجل كان يبدو في خيال هؤلاء التلاميذ الريفيين وكأنه الشيطان في سرعة الحركة وخفة الوثب، وحفظه العجيب «للجمباز» فكان هذا مع زعقاته فيهم، وتكشيراته لهم وعصاه التي يهزها في يده مهدداً ... كان هذا كله مثار رعب جارف، حتى لقد كان يوم حضوره عندهم كيوم الحشر، يشيب لهوله الولدان !

وطالما سمع هو من ابن خالته الذي يكبره عن هذا الشيطان — ضابط الجمباز — حتى لقد كان هذا الذي يسمعه من بين الأسباب الكثيرة التي تصده عن المدرسة على الرغم من كل المغريات.

وتشاء الظروف السيئة أن يصادف يوم ذهابه للمدرسة يوم حضور هذا «الألعبان». وقد كان ما يسمعه عنه من قبل كافياً لإثارة الرعب في قلبه الصغير. ولكن التلاميذ الشياطين استغلوا حداثته وعدم معرفته بهذا الشأن، وراحوا يخوفونه بما لا تحتمله أعصابه من المبالغات ... فهذا الضابط لا يكتفي بضرب من لا يؤدي جميع الحركات الصعبة المعقدة، بل إنه ليعلقه من رجليه في شجرة المدرسة، ويتركه مدلى هكذا ساعة كاملة ... وإنه ليرفعه من أذنيه أو شعر رأسه، عن الأرض، ثم يلقيه، وهكذا مرات متواليات ... وإنه ليفرك أذنه بحصاة صغيرة مع الضغط الشديد بأصبعه ... إلى آخر وسائل التعذيب التي كان يستعمل بعضها حقيقة، وبعضها مما يخترعه عنه خيال الأطفال.

ولما كان هو لا يعرف شيئاً من التمرينات الأربعة العجيبة،

بل لا يعرف «صغادن . وصولادن . ومارش» فقد أيقن لا محالة أنه ذائق ذلك العذاب الذي لا يطاق .

ولما كان قد نشأ نشأة معينة ليس الضرب إحدى وسائل التربية فيها، وكان إلى حد ما مترفاً مدللا في منزله، فإنه لم يكد يتصور أن يحتمل شيئاً من ذلك العذاب .

وإذن فالأسلم والأوفق أن يهرب من هذا الجحيم ... فما إن دق الجرس بعد الحصة الثانية ــ وقبل أن تبدأ التمرينات الأربعة ــ حتى كان قد غادر المدرسة قاصداً المنزل، هرباً مما ينتظره إذا هو آثر البقاء!

ولكنه لم يكن يعرف الطريق إلى المنزل ... فالمدرسة في طرف القرية، وبيته في وسطها، وهو طفل تجاوز السادسة بقليل، ولم يكن يترك ليلعب في الشوارع ويجوب طرقاتها كالأطفال، حفظاً لملابسه النظيفة من القذارة، وحماية له من التلوث بأخلاق أولاد القرية وألفاظهم البذيئة ... فما كاد يغادر المدرسة ويسير بضع خطوات فيقابل ثنية من ثنيات الطريق الكثيرة إلى منزله، حتى عرف أنه تاه، وأنه لا يعرف الطريق إلى المنزل بلا معين .

وكان الحل المعقول أن يعود إلى المدرسة فهي قريبة منه، وأبوه سيحضر كما أخبره في فسحة الساعة العاشرة ... ولكن هذا كان فوق ما تطيق أعصابه الصغيرة ... وعند ذاك أدركه سلاح الأطفال ... فأخذ يبكي بصوت عال .

ولقيه أحد رجال الحي فسأله عن اسمه ، ولما علم أنه ابن فلان ربت على ظهره وقاده إلى قرب المنزل، وتركه بعد أن اطمأن إلى اهتدائه لداره ...

وعندما صار صاحبنا في مأمن من الجحيم، وأخذ يسترد أعصابه أدرك ما في فعلته هذه من غضاضة — وكان على صغر سنه يدرك هذه الغضاضة — فلم يستطع أن يواجه أهل البيت بفعلته — لا خوفاً، فقد كان آمناً من الضرب — ولكن حياء من الفعلة التي لم تكن تليق ! ففضل أن يزوي وجهه عنهم، وأن يعتزلهم في « مخزن التبن » وقد كان ملحقاً بدارهم الكبيرة، ولكن له باباً مستقلاً فأغلقه عليه، وارتمى فوق التبن فنام ...

وفوجىء والده — وقد ذهب يحمل الفطائر والحلوى إليه — بأنه قد هرب من المدرسة، فعاد إلى المنزل ساخطاً على ما لقيه من « كسوف »... عاد إلى المنزل ولم يكن أحد قد علم بحضور الطفل الهارب . فلما لم يجده ولم يجد خبراً عنه انقلب سخطه إلى قلق على مصيره المجهول، وامتلأ أهل البيت كلهم قلقاً . فخرج والده يبحث عنه في طرقات القرية، وبعث برسل آخرين يجوبون الشوارع الموصلة إلى المدرسة كلها، ويسألون عنه من يصادفونه من أهل القرية، حتى لقي أحدهم ذلك الرجل الذي صحبه إلى داره، فأخبرهم خبره، فاطمأنوا بعض الاطمئنان !

وفي أثناء هذا البحث في الخارج كان قلب الأم قد قادها إلى مكمنه، فوجدته نائماً، فاحتضنته ورفعته إلى كتفها في رحمة ظاهرة... أما هو فقد أفاق . ولكنه لم يستطيع أن يرفع اليها نظره ...

لقد دفن وجهه في صدرها وجعل يبكي وينشج ... وعبثاً حاولت أن تقف منه على سر هروبه من المدرسة، هي أو أحد من أهله ... لقد أخجله أن يعترف لهم بخوفه من « ضابط الجمباز » !


المدرسة المقدسية
مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

كان قد مضى شهر وبعض شهر على هروبه من المدرسة خوفاً من « ضابط الجمباز » . وكانت أمه في كرب دائم، وهم مقعد مقيم، لأنه لم ينخرط في سلك التلاميذ كما كانت ترجو. فلقد كانت تذخر له في نفسها آمالاً جساماً، تعلقها كلها على نجاحه في هذه المدرسة الأولية، ليكون بداية لسفره إلى القاهرة عند خاله لإتمام تعليمه. وعندئذ تتحقق هذه الآمال الجسام التي تنوطها بطفلها الصغير!

وكان أخوه الأكبر — وهو ليس بشقيقه — دائم التهكم عليه لهربه من المدرسة . وكان هو يحقد على أخيه هذا التهكم. حتى لقد جرؤ على ما لم يجرؤ عليه قط من قبل ومن بعد. وما تنكره تقاليد الأسرة كل الإنكار... جرؤ على أن يقذف أخاه هذا بغطاء القلة في وجهه، ثم يلوذ بالفرار ! ...

أما والده فلم يوجه إليه كلمة واحدة. وكان هذا أمرّ عليه من تهكم أخيه.

وأخيراً وجد نفسه منساقاً إلى أن يعود إلى المدرسة. ولكن بلا ضجة ولا مراسيم في هذه المرة، وبلا تحضير أو تدبير... وجد نفسه ذات صباح يصحو مبكراً فيرتدي ملابسه الرسمية ! ويتوجه إلى بيت خالته، فيدعو ابنها ويخبره أنه ذاهب معه إلى المدرسة في هذا اليوم ...

ورحب به عريف المدرسة وفقيهها — (وكان يسمى الناظر)

وسأله عن سبب غيبته، وهنا وجد أن السر قد ثقل عليه. فأفضى به إليه ... إنه الخوف من «ضابط الجمباز» !

ولقد كان الناظر حكيماً فجعل يطمئنه من هذه الناحية حتى شعر حقيقة بالطمأنينة وعلم أنه في مأمن من خطر هذا الشيطان المريد، حتى يتعلم الحركات والتمرينات. وأنه صغير فلا بد أن تترك له فترة كبيرة للتعلم ... ثم – وهذا هو الأهم – أن ناظر المدرسة سيوصيه به خيراً عندما يجيء !

وارتفع الكابوس عن صدره ... وحينما عاد في الظهر بعد قلق الجميع عليه، وأخبر أمه بما عمل، شاع الفرح في كيانها كله. وضمته إلى صدرها في عطف جارف، وانتظرت مقدم أبيه لتزف إليه هذا الخبر السعيد. ومع أن البشاشة قد شاعت في نفس الوالد حينما علم، إلا أنه تظاهر بعدم الاكتراث. وأجابها مازحاً: دعينا يا ستي منك ومن ولدك ! ! !

• • •

كانت المدرسة مؤلفة من ثلاث حجرات متلاصقة، وأمامها بطولها فناء المدرسة، وبه الباب الخارجي .

وكان بها خمس فرق من التلاميذ موزعة كالآتي على الحجرات: الفرقة الرابعة – وبها كبار التلاميذ وفيهم من تجاوزت سنه العشرين – مع الفرقة الثالثة – وتلاميذها أصغر قليلاً – في حجرة واحدة ويعلمهم ناظر المدرسة .

والفرقتان الثانية والأولى في حجرة واحدة، ويعلمهم المعلم الآخر، والفرقة التحضيرية وهي في حجرة مستقلة، وهذه يشرف على ثقافتها وتربيتها... ابراهيم... فرّاش المدرسة الوحيد!

نعم! فلقد كان ينهي عمله في كنس المدرسة، وملْ «القلل» التي يشرب منها التلاميذ من «الزيرين» الكبيرين «بالمَزْيرَة» ويمسح السبورات ويزود الحجرات «بالطباشير» اللازم، ثم ينقلب مربياً يشرف على الناشئة في دور التحضير!

وكان هذا وحده يكفي لتنفير الطفل من البقاء في السنة التحضيرية هذه. ويضاف إليه وجود ابن خالته في السنة الرابعة... وأبدى رغبته هذه للناظر، وبعد مفاوضة اشترك فيها العريف استقر الرأي على أن يوجد في فصل – أولى وثانية – الذي يتولى العريف التدريس فيه، على أن يذهب في بعض الأحيان إلى فصل السنة الرابعة للجلوس بجوار ابن خالته... ولكن عندما يجيء المفتش إلى المدرسة فلا بد أن يجلس في السنة التحضيرية مدة وجوده!

وكان العريف والناظر كلاهما حفيين به. ولم يكن هذا عجيباً فجيوبه تحمل لهما كل صباح كميات من السكر والشاي الذي يكلفون ابراهيم الفراش إعداد شراب لهما منه في الفسحة وبعد الغداء. كما أن والده دائم الضيافة لهما في الحين بعد الحين. ولهذا كله كانا يعنيان بالتدريس له على حدة داخل الفصل، بكتابة الحروف الأبجدية، ثم الكلمات ثم الجمل في لوحه الإردوازي وتركه لمحاكاتها؛ وكان يتقدم يوماً بعد يوم، وهو يتلقى العلم في شبه درس

خصوصي شأنه في ذلك شأن عدد قليل من التلاميذ الآخرين من أبناء الأثرياء في القرية، الذين يجدون ما يجده من الرعاية والتدليل !

وفي نهاية العام كان مؤهلا لأن ينقل إلى السنة الأولى، فيجلس في مكانه الطبيعي . وكان قد ألف جو المدرسة، وبدأ يكون تلميذاً حقيقياً .

• • •

في العام التالي خطت المدرسة خطوة أخرى، فعين لها مدرس ثان، وبذلك أعفي ابراهيم الفراش من مهمته الثقافية، واستقل بعمله الإداري ! ووزع الجدول توزيعاً جديداً، فصار المدرسان والناظر يتداولون الفصول الثلاثة ذات الفرق الخمس . ووقع تعديل آخر . فوضعت الفرقة التحضيرية مع الفرقة الأولى في حجرة واحدة، والفرقتان الثانية والثالثة في حجرة . وانفردت الفرقة الرابعة بحجرة وحدها فيها عدا التلاميذ «دولاب» الناظر وبه الحكك والأقلام والكتب والكراسات .

أما في العام الذي يليه ــ وحينما كان الطفل قد نقل إلى السنة الثانية ــ فقد وقع انقلاب ضخم ارتجت له القرية ارتجاجاً عظيماً :

كان قد توافر لدى المجلس معلمون من الفقهاء . فبدا له أن يستبدل أحدهم بالشيخ القارىء صاحب الكتّاب، الذي لم يكن

يحمل هذه الشهاده، ولا عرف شيئاً من الحساب ولا المواد الثقافية الأخرى !

وعندما تمت هذه الخطوة كانت الإشاعات قد انطلقت في القرية فهزّتها هزاً عنيفاً ... إن الحكومة تريد محو القرآن بعدم تحفيظه في مدارسها ... وهل أدلّ على ذلك من فصلها للشيخ أحمد الذي يقرأ القرآن لأبنائهم في المدرسة، والذي اطمأنوا لوجوده بها فبعثوا بأولادهم إليها ؟

وسرت هذه الإشاعات سريان النار في الهشيم وغذاها الشيخ بطبيعة الحال انتقاماً من المدرسة، وترويجاً لكُتّابه الذي سيعود للتعليم فيه ... فأصبحت المدرسة وقد غادرها عدد عظيم من تلاميذها في إثر «سيدهم الشيخ أحمد» انتفاعاً ببركته ؛ وبركة كتّابه، وبركة كلام الله ؛ وفراراً بدينهم من مدرسة الكفر والضلال التي تسرق الحكومة دينهم فيها وهم لا يشعرون !

ولم يكن ليفوت «سيّدنا» أن يمر بوالد الطفل ليبلغه الخبر العظيم، وليحذره بقاء نجله بالمدرسة . ثم ليؤكد أمله الوثيق في أنه سيذهب من الغد إلى الكتّاب، فهو ابنه، ولا بد أن يتولى تعليمه، كما تولى والده تعليم أبيه !

ولقد كان أبوه أرشد من أن تؤثر فيه هذه الدعاية، إذ كان من قراء الصحف، مشتركاً في صحيفة يومية، وعضواً في لجنة الحزب الوطني بالقرية ... ولكنه كان خجولاً ومجاملاً، فلم يود أن يجرح

شعور «سيّدنا» – ابن سيّده – ووعده بأن يكون الطفل منذ الصباح في «الكتّاب».

وثارت زوبعة في المنزل حول هذا الانقلاب ... فأما والدته فهي مصرة على بقائه بالمدرسة، لأنها مفتاح تلك الآمال الطوال العراض، التي تعلقها على الطفل الصغير، وأما والده فقد وعد، وما يجوز أن يرجع الرجال في وعودهم بحال!

ولم يكن بدّ من أن ينفذ رأي أبيه، وأن يتوجه منذ الصباح إلى الكتّاب... لا يذكر أن قلبه الصغير قد عرف من قبل مثل الهم الذي عرفه في ذلك اليوم. ولا أن صدره قد ضاق وحرج واكتأب كاليوم أيضاً... لقد استقبله سيدنا الشيخ أحمد بالحفاوة والبشر والبشاشة، ولقد أجلسه بجواره على الفروة التي يجلس هو عليها، في حين جلس صبيان الكتّاب على الحصيرة في وسطه، أو على المصطبة الدائرة بجانب الجدران.

ولكن هذا كله لم يفتح نفسه لشيء... لقد اعتاد أن يستقبل في الصباح ذلك البناء النظيف الأنيق. ذا الحجرات المطلية بالجير، والفناء المفروش بالرمل، وأن يجلس على المقاعد المدرسية وأمامه قمطره، وفيه الكتب والأدوات والكراسات ولوحه الإردوازي الأنيق... أما هنا في الكتّاب، فلا مقاعد ولا قماطر ولا حجرات ولا جرس ولا صفوف، ولا كتب ولا أدوات ولا كراسات... إنما هو لوح من الصفيح يكتب فيه التلاميذ بحبر مصنوع من زهرة الغسيل، أو «هباب» المصابيح، أو من مواد تشبههما. وهم يحملون

الدواة والقلم في أيديهم أينما ذهبوا، فإذا «سمّع» لهم سيدنا «الألواح» ووجدهم قد حفظوا أذن لهم بمسحها وكتابة آيات أخرى من القرآن فيها. أما طريقة مسحها فهي طريقة قذرة، إذ يبصق التلاميذ فيها ثم يدعكونها بأيديهم، ويمسحونها بطرف ثيابهم، لذلك تبدو ثيابهم دائماً ملوثة بالحبر.

ثم لقد هاله أن سيدنا حين يصحح هذه الألواح لهم بالمداد الأحمر، ويلاحظ فيما كتبوا غلطاً يبادر بلحس الكلمات المغلوطة بلسانه ومسحها بطرف كفه، ليكتب بدلا منها الكلمات الصحيحة.

ثم إذا بدا لتلميذ أن يستأذن لقضاء حاجة خارج الكتّاب، فإنه لا يرفع اصبعه كما يرفع التلاميذ في المدرسة أصابعهم، بل يروح يفرقع بأصبعه السبابة فوق أصابعه الأخرى، وهو ينادي: سيدنا سيدنا. فإذا انتبه إليه سيدنا جمع أصابعه وقال له: «دستور»! فإذا أذن له خرج وقد لا يعود أبداً بقية اليوم.

على أية حال لقد امتلأت نفسه اشمئزازاً من كل ما حوله وأحسّ هناك بغربة مريرة ذليلة... وحينما عاد إلى المنزل كان قد صمم على ألا يعود أبداً إلى هذا المكان القذر، مهما أصابه من التهديد والتبكيت. وأسرّ بهذه الرغبة الملحة إلى أمه، فاغرورقت عيناها بالدموع.

وفي الصباح كان والده وكان سيدنا كذلك يعتقدان أنه ذاهب إلى الكتّاب، ولكنه أخذ طريقه خفية إلى المدرسة مهرولاً كأنما

يخشى احدا يتعقبه . فوصل إليها مبكراً جداً، فلم يجد هنالك أحداً ولا الفراش ... كان بابها لا يزال مغلقاً، فآثر أن يجلس أمامه وأن يركن بظهره إليه ، كأنما يأوي إلى مكان حبيب وحصن حصين عصيب !

وتكاثر التلاميذ بعد قليل، وسأله بعضهم لماذا غاب بالأمس، فقد كان هذا هو اليوم الوحيد الذي غاب فيه منذ أن جاء إلى المدرسة، وراح يشرح لهم كيف ذهب إلى الكتّاب. وكيف وجده قذراً لا يطاق، وكيف يختلف في كل شيء عن مدرستهم الجميلة... وفجأة انقلب داعية إلى المدرسة ضد الكتّاب، وهو لا يدري ما الدعاية وما الترويج !

وحينما سأله الناظر عن سر غيبته الشاذة راح يقص عليه والدموع تنهمر من عينيه ظروف هذه المأساة ... وطمأنه الناظر على مقامه بالمدرسة. ووعده بأنه سيذهب اليوم إلى والده لإقناعه بالبقاء .

واستراح كل الراحة. ووجد نفسه يتنفس في البيئة الطبيعية التي يألفها. وحينما حان موعد الانصراف ذهب إلى الناظر ليذكّره بوعده فأبلغه أنه قادم على اثره ... وهكذا كان. فقد حضر إلى الدار مع زميليه، وأقنعوا والده بأن ابنه خسارة في الكتّاب. وأنه تلميذ نبيه متفوق، وأنهم ينتظرون له مستقبلا طيباً في المدرسة .

ونظراً لأنهم ليسوا من أهل البلدة بل ضيوفاً ، فقد اضطر إلى قبول رجائهم، واعتذر لسيدنا بهذا العذر حينما عاود المجيء. فانصرف وهو يحوقل ويستعيذ من رسل الكفر والضلال .

• • •

منذ ذلك اليوم عادت المدرسة في نفسه مكاناً مقدساً كمحاريب الصلاة. وارتفعت بما فيها ومن فيها في عينه درجات. وآلى على نفسه أن يكون داعية المدرسة المكافح دونها ضد «الكتّاب».

إن حجة الكتّاب الكبرى أنه يعنى بتحفيظ القرآن. بينما المدرسة تهمله. ولا تستطيع أن تخرج تلميذاً واحداً يحفظه ... إذن فليوجه همه إلى حفظ القرآن. حتى يهدم هذه الحجة الكبرى ... وإنه ليرهق نفسه وصحته المرهقة. ويسهر إلى منتصف الليل. ليعيد في كل ليلة جميع ما سبق له حفظه من القرآن. وذلك بجانب الدروس الأخرى ... فما يكتمل العام حتى يكون قد حفظ ثلث القرآن حفظاً جيداً يباهي به من يتحداه!

ثم يؤلف جبهة من تلاميذ المدرسة ضد «أولاد الكتاتيب». جبهة للمفاخرة بكل شيء. وبحفظ القرآن أيضاً ... وآية ذلك هي «النقاوة» ومعناها أن «ينقي» — أي ينتقي — بعض التلاميذ لبعض آيات وسوراً من القرآن للاختبار في حفظها. وذلك على سبيل المباراة بين هؤلاء وهؤلاء. وكثيراً ما فازت المدرسة. فأدركته النشوة الجارفة بهذا الانتصار ...

كان من مفاخر فريق المدرسة أشياء وأشياء ...

.بناء مدرستهم الأنيق النظيف. بجانب بناء الكتّاب القديم القذر وفناؤها الفسيح. والشجرتان الظليلتان به. وزهرتهما الجميلة التي لا نظير لها في القرية كلها: زهرة «دقن الباشا» ذات الرائحة العطرة

و « المَزْيرَة » وهي صوان من الخشب المتشابك بداخله « زيران » كبيران على حمالتين من الحديد، وتحتهما « جردلان » نظيفان لتلقي الماء المقطر الذي يشرب منه « الأفنديات » ــ و « الأفنديات » ــ جمع شيخ ! ــ وهم معلمو المدرسة وناظرها ــ وكان التلاميذ وأهل البلد يلقبونهم بهذا اللقب تمييزاً لهم عن مشايخ القرية وهم حفظة القرآن ــ الأفنديات ، وملابسهم النظيفة ، ومرتباتهم التي تصرف من مجلس المديرية لا من « خميس » الأولاد الذي يؤدونه لهم في كل يوم خميس !

ثم المقاعد والقماطر... وبخاصة الأدوات التي تصرف لهم كل عام، والكراسات الأربع ، والأقلام الأربعة كذلك من البوص الأحمر ، بينما أولاد الكتاب يكتبون في ألواح الصفيح بأقلام الغاب البيضاء... ثم النشاف الذي يجفف الكراريس. بينما يستخدم أبناء الكتاب التراب في تجفيف ألواحهم. والريق في محوها مع طرف الملابس. أو اللسان في بعض الأحيان !

وأشياء أخرى كثيرة هي موضع فخارهم .. ولكن شيئاً منها لا يبلغ ما تبلغه اللافتة « اليافطة » التي تعلو باب المدرسة ... وهي الطابع الفريد للمدرسة الذي لا نظير له في القرية كلها، والذي نقل عن البندر نقلاً !

أما قصة هذه اللافتة فترجع في الحقيقة إلى العام التالي، حينما انتقل الطفل إلى السنة الثالثة، فقد توافر للمجلس عدد من المتخرجين في مدارس المعلمين بنظامها الجديد ــ إذ ذاك ــ فعينت للمدرسة اثنين منهم، أحدهما ناظر بدل الناظر القديم الذي نقل معلماً في بلدة

اخرى . والاخر مدرس ؛ فلم يبق بالمدرسة إلا عريف واحد نقل هو الآخر بعد شهر من السنة . وبذلك ارتقت المدرسة درجة أخرى، واستكملت جميع خصائصها النظامية، وصفي التلاميذ الكبار – أو بتعبير أصح الرجال ذوو الشوارب – وألغيت الفرقة التحضيرية، وقسمت المدرسة إلى أربع فرق بنظام معقول .

وبدا للناظر الجديد أن يدخل على المدرسة تجديداً عظيماً، فاقترح أن تعلق عليها لافتة باسمها على النحو المتبع في مدارس البندر، وعرض على التلاميذ أن يساهموا في شراء هذه اللافتة بما يستطيعون بعد أن أعلن لهم أنها ستكلف خمسة وعشرين قرشاً .

وتحمس صاحبنا للمشروع . فهذه اللافتة ستكون مفخرة جديدة يضمها إلى مفاخر المدرسة حينما يباهي بها تلاميذ الكتّاب... وحينما بدأ بعض التلاميذ يحضر مليماً أو مليمين، وأبناء الأثرياء يحضرون نصف القرش وفي النادر القرش، كان هو يبذل جهده في المنزل ليحضر خمسين مليماً !

وحينما تمت كتابة اللافتة في البندر . وعلقت على باب المدرسة كاد يطير فرحاً ! ! !

* * *

في نهاية السنة الرابعة كان يجيد حفظ القرآن... وكانت هذه هي معجزة المدرسة الأولى، التي تخرس ألسنة الدعاة الكذبة من

أصحاب «الكتاتيب» وصبيانها ... ولكنه وقد أتم الدراسة بالمدرسة كان لا يزال طفلا، كان في نحو العاشرة... وكان له زملاء قد أتموا من قبل حفظ القرآن بالكتّاب، ثم دخلوا المدرسة. فلما بلغوا السنة الرابعة كانت سنهم قد تجاوزت الخامسة عشرة. وهؤلاء ثلاثة تمكنوا في نهاية العام أن يتقدموا لمدرسة المعلمين الأولية في البندر فقبلوا ...

كان هذا حدثاً جديداً في القرية اهتزت له اهتزازاً ... إذ سيصير هؤلاء بعد سنوات، ثلاثة «أفنديات» كأفنديات المدرسة الذين تخرجوا من تحت أيديهم !

وكان هو يتمنى لو يغمض عينه ويفتحها فيرى نفسه في مثل سنهم فتقبله مدرسة المعلمين. ولكن أين هو من هذه الأحلام؟!

لقد كان يكنّ للأفنديات نوعاً من الشعور يشبه العبادة ... فهم أولاً جزء من المدرسة المقدسة. وهم ثانياً أولئك الذين يعلمون ما لا يعلم، ويدركون ما لا يدرك. ويقدرون على كل شيء، ولهم حياة خاصة لا يدرك لها كنها كحياة الأطياف !

وإنه ليذكر اليوم بعد مضي أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وبعد تقلب الظروف والأحوال، أنه بُعث مرة إلى منزلهم الذي كانوا يسكنونه في البلدة، والذي تبرع به أحد ملاكها لسكناهم اعترافاً بفضلهم وتكريماً لهم ... يذكر أن أحدهم كان قد نسي ساعته، فانتدبه وسلمه المفتاح ليأتي له بها – إذ كان معروفاً بأمانته في

المدرسة — ويذكر أنه دخل الدار متهيباً متوجساً، كأنما يدخل محراباً مقدساً أو داراً مسحورة، فانبهرت أنفاسه وهو يخطو، وهو يصعد الدرج، وهو يفتح باب الحجرة المقدسة، وهو يتناول الساعة، ثم يغلق الباب، ويعود كأنه «الشاطر حسن» داخل الكنز المسحور!

كان يتمنى إذن أن يلتحق بالمدرسة التي التحق بها هؤلاء... ولكن السن كانت تحول بينه وبين ما يريد... ولم يكن بد من أن يترك المدرسة ليخلي مكانه لقادم جديد...

ولكن كم كان شاقاً على نفسه أن يغادر وطنه هذا الصغير، وأن يبعد عن رفاقه ولداته الذين يحبهم ويحبونه... وكم كان عزيزاً على المدرسين أن يفرطوا فيه وهو حجتهم الأولى على نجاح المدرسة في تحفيظ القرآن ... وما كان أسرع ما احتالوا لذلك، فقيدوا اسمه في السنة الرابعة بعد مضي شهر من العام التالي على أنه مستجد.

وهكذا عاد إلى المدرسة الحبيبة ليقضي بين جدرانها عاماً آخر... يضاف إلى الأعوام السعيدة الجميلة.

* * *

ومضى ربع قرن، سافر في أثنائه إلى القاهرة، وأتم دراسته العالية وشغل مناصب كثيرة ... ولكنه لا يعود اليوم إلى القرية حتى يتوجه إلى المدرسة المقدسة، فإذا تجاوز العتبة أحس برهبة التلمذة وخشوع العبادة ... ولو سئل أحلى أمانيه لأجاب:

إنه يتمنى أن يعود تلميذاً في المدرسة المقدسة، ينافح عنها الكتّاب وصبيان الكتّاب! وإن عشرات من الصور العجيبة والحبيبة لتقفز إلى مخيلته، وتتراقص في خاطره، وكأنما يعيشها من جديد، وهو يتخطى العتبة المقدسة.

° ° °

فهو يذكر تلك الفترة التي كانت المدرسة تستحيل فيها إلى شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات، وتبقى الجهة الرابعة وحدها هي طريق الوصول ... كان يقع ذلك أيام فيضان النيل، إذ كانت أرض قريته تغمر بهذا الفيضان شهرين في العام، وتنكشف الأرض للزرع بقية العام! وكانت المدرسة بحكم موقعها في طرف البلدة على حدود الحقل تحتاطها مياه الفيضان إلا مسلكاً واحداً طوال هذين الشهرين الجميلين.

كان جمالهما في يوم السبت من كل أسبوع... ذلك أن الأفنديات وبعضهم من البندر وبعضهم من القرى المجاورة كانوا يبقون في البلدة طول الأسبوع، ويذهبون إلى رؤية أهليهم يومي الخميس والجمعة، ثم يحضرون صباح السبت. فأما في أيام السنة العادية فإنهم يستقلون الحمير في الموعد المناسب، فيصلون قبل ميعاد دق الجرس في صباح السبت. وأما في أيام الفيضان فهم يستقلون المراكب والقوارب الشراعية، وهذه لا ضابط لها ولا ميعاد ولا تصل غالباً إلا بعد أن ترتفع الشمس وتناهز الساعة العاشرة بعد فوات

وقت الدرسين الأولين، وقد لا تصل حتى الظهر في بعض أيام السبت الجميلة!

ولقد كان التلاميذ يقفون على الشط أو يبعدون في شوارع القرية القريبة. أو يقفزون ويتصايحون في فناء المدرسة، يدخلون الحجرات ثم يخرجون منها في غير ما حرج ودون شعور بأي قيد، وكان يحلو لهم هذا الدخول والخروج. واعتلاء المقاعد والقماطر، والتلصص من النوافذ المطلة على مياه الفيضان... وكانت الجرأة تبلغ ببعضهم أن يخلعوا ملابسهم. ويلقوا بأنفسهم في الماء من النوافذ فيسبحوا ثم يعودوا فيتسلقوا النوافذ حيث يجدون ملابسهم، أو حيث لا يجدونها. إذ ينتهز بعض زملائهم هذه الفرصة فيخفونها أو ينقلونها إلى مكان بعيد. حيث يدور الطفل يبحث عنها وهو عريان في كل مكان في المدرسة. حتى يهتدي إليها أخيراً!

وتظل هذه الحالة العابثة المرحة حتى تقرب مركب أو قارب من عرض الفيضان. ويخشى أن يكون فيها أحد «الأفنديات» (فقد كانوا يصلون متفرقين حسب المراكب التي تقوم من بلادهم المختلفة) وفي لمحة عين يكون كل تلميذ على مقعده. وأمامه مصحف أو كتاب يقرأ فيه. والنظام مستتب والأصوات خافتة. إلا من هينمة القراءة دليلاً على شدة الاستغراق!

فأما إذا كان أحدهم في المركب فبها ونعمت. وهاهم أولاء جميع التلاميذ في نظام تام! وأما إذا كانت فارغة. فقد نفخ في الصور مرة أخرى. وعادت الضجة بأعنف مما كانت، وعاد القفز

والوثب إلى الماء من النوافذ وعلى الأرض في الفناء . ويتكرر هذا في كل سبت طوال مدة الفيضان . وذلك كله على الرغم من جهود «سيدنا عبد الله» ...

وسيدنا عبد الله هذا هو خليفة ابراهيم الفراش، وهو من أهل البلد، وقد عين فراشاً في المدرسة، بعد أن كان عريفاً في «كتّاب» لأن المرتب الثابت – وقدره تسعون قرشاً في الشهر – أضمن من نصيبه في «خميس» صبية الكتّاب الذي قد لا يتجاوز خمسة قروش في كل أسبوع ! ومع أنه اشتغل فراشاً فقد ظل يحتفظ بلقبه القديم «سيدنا عبد الله»

• • •

ثم يذكر «المفتش» ولو أنها ذكرى مرعبة، ولكنها الآن تبدو فكاهة لذيذة :

كان يزور المدرسة مفتشان شيخان : أحدهما من مجلس المديرية والآخر من وزارة المعارف . ومع أن حضور واحد منهما كان ينشف ريق الأطفال دائماً. ويلقي الذعر في قلوبهم، فوق ما يربك المدرسين والمدرسة، ويخلع عليها ظلا قاتماً وجواً خانقاً . فإن مفتش الوزارة كان مصدر رعب أكبر من مفتش المجلس !

كان رجلا فارعاً. أسمر الأديم. قاسي الملامح. حاد النظرات

يخيل إليك دائماً أنه حاقد على شيء ما، وأنه يصرّف أنيابه من الغيظ الكظيم ... ولما كان مفتش الوزارة، لم يكن بد أن يخلع على نفسه وعلى زيارته أهمية غير أهمية مفتش المجلس !... لذلك كان يبدو رزيناً أكثر من اللازم، عنيفاً قاسياً في حركاته وكلماته وإشاراته. وكانت جبته وقفطانه المنسدلان على بدنه الفارع يزيدانه هيبة وهولاً. وكان يبدو على المدرسين فزع أكبر، فينتقل منهم بالعدوى إلى التلاميذ ... حتى لتبدو ساعات وجوده بالمدرسة كأنها دهر طويل، وكأن الزمن لا يمر إلا ببطء شديد ...

أما الحادث الفذ الذي لا ينساه، فهو هذا الحادث!

كانت الدراسة جارية كعادتها في هينة وتؤدة ؛ الجو قائظ في نهاية العام والتلاميذ خاملون، والمدرس قد ثقلت عليه جبته فتخفف منها وألقاها على مسند المقعد، وثقلت عليه عمامته فأمسك بها من مقبض الزر في رفق كي لا تنتكث، وألقى بها على قمطر التلميذ الأول، وجلس على كرسيه في تراخ ظاهر. وباعد ما بين فخذيه، فانفسخ القفطان، وبدت منه «تكة» السراويل المتدلية في غير ما كلفة ...

وبينما الوقت يمر والدنيا هادئة، والجميع في تهويمة لذيذة، إذا بشبح طويل فارع يقفز من النافذة متدلياً منها إلى حجرة الدراسة فيصبح معهم في لحظة !

وريع التلاميذ، وجمد الدم في عروقهم وشخصت أبصارهم إلى

الشبح المتسلق، وندت منهم صيحات مذعورة واضطرب المدرس وقام يمسك عمامته بيد، ويحاول أن يرتدي جبته باليد الأخرى فلا يستطيع ... والشبح تنفرج ثناياه عن ابتسامة صفراء كالحة، ولسانه ينطق في تهكم مر وهو يهز رأسه هزاً دائماً : ما شاء الله ما شاء الله !

ماذا ؟

إنه المفتش — مفتش الوزارة قد أوقف حماره الذي يركبه عادة للحضور من البندر إلى القرية . أوقفه تحت النافذة تماما، وأنصت ثم قفز على ظهره واقفاً فأصبح قريباً من النافذة، ثم تسلقها ليضبط كل شيء .

وكانت هذه طريقة مبتكرة في التفتيش ! ! !

• • •

وصورة أخرى لا يملك أن ينساها كذلك :

كان النظار والمدرسون يتعاقبون على المدرسة والتلاميذ بسبب التنقلات السنوية المعتادة . وحينما كان في السنة الرابعة عين ناظر شيخ مسن، تلقى تعليمه في الأزهر ، ثم التحق بمجلس المديرية .

كان الرجل أشيب، صلع رأسه سوى دائرة حلقية، وكانت العمامة تستر هذه الصلعة، فإذا رفعها تبدت من تحتها كاملة .

وكانت هذه الصلعة مثار ضحك التلاميذ الشياطين وسخريتهم.

وفي يوم تمت مؤامرة بين عفاريت التلاميذ ؛ وبينما الشيخ جالس يصحح الكراسات والتلاميذ من حوله مجتمعون، وهو مستغرق في العمل ... شاهد التلاميذ عمامة ترتفع شيئاً فشيئاً عن رأس الشيخ حتى تتوسط الحجرة، ثم تسقط فجأة عندما يقف الشيخ غاضباً مزمجراً، بينما ينفجر الضحك من حلوق التلاميذ وعيونهم، ويترقرق في عيونهم الدمع لشدة مغالبة الضحك المكتوم.

كانت لعبة الشص والبكرة قد عملت عملها في عمامة الشيخ المسكين. فلما تنبه ترك التلميذ الخيط فسقطت سقطة مفاجئة!

كان هذا الشيخ مغرما بالإعراب، والتلاميذ صغار في المدرسة الأولية لكن ماذا يعنيه هو ... إنه يستدعي تلميذاً منهم ليكتب على السبورة، فقد كان خط الشيخ لا يقرأ. ويملي عليه أبياتاً كاملة من الشعر، ثم يكلف التلاميذ أن يعربوها، فإذا لم يعرفوا ففيه هو البركة، وإنه ليحفظهم الإعراب تحفيظاً.

ولا عليه ألا يفهم التلاميذ شيئاً من الاصطلاحات الإعرابية العميقة، ولم يكن نادراً أن يلوك تلميذ صغير مثل هذه الكلمات: «وطني: مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة» أو «إذا: ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه» ... الخ.

وعلى كل حال فقد ازدحمت حافظة التلاميذ بشيء من هذا كثير

وتمر الأيام ويحضر العلماء وطلاب الأزهر من القاهرة إلى القرية في العطلة، ويتطوّع عالم منهم بإلقاء درس في التفسير على الجمهور في أحد مساجد القرية.

وهذا الدرس لا يتجاوز أن يجلس الشيخ، ويلتف حوله القرويون الأميون، فيسحب من صدره «ملزمة» من تفسير الزمخشري، ويروح يتلوه عليهم، وهو يصفق بيديه بين آن وآخر ويقول: مفهوم؟، فيجيب بعضهم: مفهوم... ويمضي يصب عليهم ما في الزمخشري من بلاغة ونحو وصرف وتأويلات لا يدرون منها شيئاً.

وكان الطفل يحضر هذه الدروس كي يصير رجلاً! وفي ليلة كان الشيخ يقرأ تفسير سورة الكهف؛ ومر بقوله، تعالى: «ذلك ما كنا نبغِ فارتدّا على آثارهما قصصا».

ولما كان الطفل حريصاً على محصوله من النحو فقد لفت نظره أن كلمة «نبغ» محذوفة حرف العلة بلا مبرر ظاهر.

فرفع أصبعه كما يصنع في المدرسة، وقال: يا سيدنا الشيخ لماذا حذفت الياء في «نبغ» بدون جازم؟

ورفع الشيخ رأسه بلا اهتمام، ثم مضى يقول وكأنه يستمر في التلاوة: «يا سيدي حذفت الياء اعتباطاً للتسهيل» ومضى لا يلوي على شيء، ولا يلتفت إلى الطفل الصغير.

وسمع الطفل «اعتباطا للتسهيل» فلم يجد أن هذا في طوقه. إنه يعرف إعراب إذا وإعراب المنادى. وحروف الجزم، وحروف العلة. أما «اعتباطاً للتسهيل» هذه فشيء لا يصل إلى مستواه. إنه علم الأزهر. وهو هنا في القرية. وفوق كل ذي علم عليم!

ومضت سنون كثيرة قبل أن يعرف الطفل: «اعتباطاً» وقبل أن يعرف «للتسهيل»!

• • •

ثم يذكر أشياء أخرى أهم في نظره وأعمق في نفسه... كانت المدرسة قد فتحت أبوابها لبنات القرية أخيراً على أن يتعلمن مع الصبيان طول اليوم، فلم يكن نظام نصف اليوم للبنين، ونصفه الآخر للبنات قد اخترع في القرى.

وقبل بعض الآباء أن يرسلوا بناتهم إلى المدرسة ـ ولا سيما وهن طفلات صغيرات لا يتجاوزن العاشرة ـ وكان عددهن في المدرسة كلها سبع بنات... ومع أنهن لا يمتزن بشيء عن بقية بنات القرية، فإن وجودهن في المدرسة قد أوجد فيها جواً غريباً، وأشاع فيها عطراً خاصاً... ذلك الجو هو مزيج من الحساسية الحادة، والرغبة المكبوتة في محادثة هذا الجنس الغريب في المدرسة ومن الحياء القروي الساذج، والحذر من تجاوز الحد فيقع المتجاوز تحت طائلة العقاب المدرسي والمنزلي على السواء.

ولكن هذا كله لم يمنع بعض التلاميذ ولا سيما الكبار منهم، أن يأخذوا في معاكسة البنات عند انصرافهن من المدرسة، بالكلمات التي قد يكون بعضها نابياً، وبالحركات والأصوات العابثة... وكان الغرض كله هو لفت النظر بطبيعة الحال !

أما هو فإن حياءه الشديد. وتقاليده العائلية، قد أمسكت به بعيداً عن هذه الحركات؛ ولكن هذا لم يكن معناه أنه أقل رغبة من الآخرين في لفت النظر إليه... إنما كانت وسيلته إلى ذلك مما يتفق مع نشأته: فأخذ جانب المدافع عن كرامة البنات حيثما وجه إليهن اعتداء !

ومع هذا فقد راعه أن يكسب الموقعة بلا نضال... لقد كان في البيت ذات يوم: فما راعه إلا البنات السبعة يطرقن الباب ويسألن عن شقيقته الصغيرة للعب معها داخل الدار!.

لم يكن هذا كله بلا تمهيد... فقد كان من بين البنات أخت لزوجة أحد أعمامه: ومن بينهن ابنة عمها كذلك. وكان لهذه في نفسه شأن خاص !

ولم يكن الحديث ممنوعاً بينه وبين الأولى بلا كلفة. أما الأخرى فمع أن صلة المصاهرة البعيدة كانت تسمح له بالحديث. إلا أنه كان يرهبه ويتوقاه في قداسة صوفية. وفي حياء عميق.

ولكنه على كل حال لم يدعهن إلى المنزل. وما كان يستطيع أن يوجه هذه الدعوة... فلما حضرن جميعاً على هذا النحو. تقودهن

الطفلة الأولى، وتتمنع الأخرى في خفر محبب ... أحس في نفسه نشوة لم يشعر بمثلها قط ؛ لقد أدرك أنه هو المقصود بهذه الزيارة لا أخته الصغيرة ! وأحس أن هذه الأخرى تخصه بما يخصها به، وإن لم يتبادلا الكلام .

وتكررت هذه الزيارات، ولم يزد الأمر فيها على مقابلات خاطفة، ولكنها تركت في نفسه أثراً لا يمحى .

كانت هذه الثانية خمرية اللون، ذات طابع خاص غير مكرر في الوجوه ... ولم تكن حسب مقاييس القرية جميلة. فليست بيضاء البشرة، وليس أنفها دقيقاً بالقدر المطلوب، وليس فمها كذلك «خاتم سليمان» ... ولكنها هي وحدها من بين بنات المدرسة بل من بين بنات القرية جميعاً كانت تبدو في نظره جميلة، وكان سر جمالها عنده أنها ذات طابع خاص ! وإن لم يكن يدرك في ذلك الحين معنى الطابع الخاص .

وعندما غادر القرية إلى القاهرة ظل هذا الوجه يخايل له ويرسم نماذج الجمال في نظره، حتى عاد بعد ثلاثة أعوام، وقد تغيرت حياته وتغيرت ثقافته وتغير عالمه ... إلا أن السؤال الأول الذي توجه به في حذر والتواء، كان هو السؤال عن مصير الطفلة التي فتنته أول مرة .

وعلم أنها تزوجت، وأنها تزوجت في جهة نائية عن القرية .

ورأى نفسه في حاجة لأن ينسحب من الجمع ، ورأى عينيه تتغرغران بالدموع ! ! !



بعثة طبية
مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

كانت الساعة تقارب العاشرة صباحا ... كانوا قد تلقوا الدرسين الأول والثاني في مدرسة القرية، ثم انطلقوا ... انطلقوا من الفصول كالعصافير الحبيسة حينما تنطلق من القفص بعد حبس طويل، انطلقوا يقفزون ويركضون، ويزعقون ويتصايحون، لغير ما قصد ولا غاية إلا تأكيد شعورهم بأنهم طلقاء بعد الحبس الطويل !

ثم لكي يفرغوا لنقل ما تحمله جيوبهم من بعض الأطعمة إلى بطونهم، فلقد حملوه نحو ساعتين، ولكن «النظام» في الفصل لم يكن ليسمح لهم بعملية تفريغ الجيوب !

ثم لكي ينصرف أبناء الأثرياء منهم إلى «عشة عم خليل» بائع القصب والبلح، فيشتروا منه بمليم !

ولم تكن هذه كل قيمة «الفسحة» فلقد كان لهؤلاء الأطفال مآرب أخرى في تلك الفسحة القصيرة — ربع الساعة — لقد كانت المدرسة في طرف القرية على حدود الحقول الواسعة. وإذا كانت وظيفة الحقل أن ينبت للناس وللماشية الحبّ والأبّ. فلقد كانت له وظيفة أخرى عند تلاميذ المدرسة. وعند غيرهم من سكان القرية. إنه يقوم لهم بوظيفة المراحيض العمومية !

انطلق التلاميذ إذن في كل مكان يفرغون ما تحمله جيوبهم في بطونهم، وما تحمله بطونهم في الحقول القريبة ... ولكنهم

فوجئوا بجرس المدينة يدق دقاً عنيفاً متواصلاً قبل الميعاد المقرر للحصة الثالثة . ومع أنهم لم يكونوا يحملون ساعات بطبيعة الحال فإنهم لم يكونوا ليخطئوا في معرفة الوقت بالضبط ، فان احساسهم به لا يخطىء إلا في النادر القليل !

وانتظموا صفوفاً بعد قليل، ولم يسمعوا تلك النداءات المعهودة التي يؤدون على أساسها بعض الحركات الرياضية الساذجة : «صغادون» — أي إلى اليمين «صولادون» أي إلى اليسار ... و «مارش» أي سر إلى الفصول .

لم يسمعوا شيئاً من هذا، ولكنهم سمعوا ناظر المدرسة يلقي عليهم خبراً غريباً عجيباً لم يسمعوا به قبل الآن ... إنهم الآن ذاهبون إلى «دوار العمدة» وسيسيرون في الطريق بنظام، وكان هذا يقتضيهم أن يقطعوا شوارع القرية كلها تقريباً فدوّار العمدة في أقصى الطرف الآخر من القرية، والناظر يحذرهم من الإخلال بالنظام في أثناء السير، والالتفات إلى اليسار أو إلى اليمين، وبخاصة عند مرورهم «بسويقة القرية» حيث يعرض القصب والبلح والتفاح البلدي الفج .

يذهبون إلى دوار العمدة ؟ ولماذا ؟ وهم لم يدخلوا هذا الدوّار قط ، وإن سمعوا عن آبائهم وأهليهم أنهم يذهبون في بعض الأحيان، عندما يستدعيهم أحد الخفراء لأداء المتأخر من الأموال الأميرية، أو أموال الخفراء ، أو لأداء شهادة، أو للشكوى من بعض

الفلاحين ... أما هم ... هم تلاميذ المدرسة . فما لهم وكل هذه الأشياء ؟

وكان هو جريئاً بعض الشيء على ناظر المدرسة ومدرسيها . كان متفوقاً في دروسه ؛ وكان قبل كل هذا ابن رجل مضياف متنور بعض الشيء، فهو كثير الاختلاط «بالأفنديات» كثير الضيافة لهم، ولهذا قيمته الكبرى .

أقول كان جريئاً على «الأفنديات» فاستطاع أن يسأل : ولماذا نذهب إلى دوّار العمدة ؟

سأل، ويا ليته لم يسأل ! لقد كان الجواب كارثة عظمى لم تخطر له ولا لزملائه على بال ... إن «الحكيم» هناك ــ أي الطبيب ــ وهو يطلبهم جميعاً !

الحكيم ؟ يا للداهية ! اليوم دنت آخرتهم ولا شك، فعهدهم بالحكيم هذا، ألا يزور القرية إلا في يوم أغبر أكدر، يوم يقع في البلد قتيل، ثم تحضر «النيابة» ويحضر معها الحكيم لتشريح الجثة !

والنيابة والحكيم. هذان هما الشيئان الهائلان المخيفان في القرية كلها . أما في أذهان الأطفال فهما «هيولي» لا يتصورون لهما شكلا ولا حجماً، فخيالهم الصغير يستطيع أن ينطلق في تصورهما كيف شاء، ولكنه لن يميزهما بحدود مما يميز الأشخاص والأشياء .

نعم كان هناك أشخاص مرهوبون غير النيابة والحكيم، مثل

«الدورية» وهم بعض جنود البوليس الذين يزورون القرية ليلا في بعض السنوات لامتحان يقظة الخفراء. وقيامهم بواجبهم، والقبض على كل من يجدونه يتجول في شوارع القرية. أو مداخلها بعد منتصف الليل ...

ومثل «المعاون» و «الملاحظ» ثم «المأمور» وهؤلاء لا يزورون القرية غالباً إلا مرافقين للنيابة والحكيم ... ولكن هؤلاء جميعاً دون النيابة والحكيم في خيال القرية كلها وخيال الأطفال بوجه خاص.

ثم ها هو ذا الحكيم يطلبهم. يطلبهم هم بالذات. فماذا يكون الأمر ؟

انهم لا يعرفون لماذا يطلبهم مطلقاً. ولكنهم واثقون في قرارة نفوسهم أنه لن يكون خيراً. وأنهم لن يخرجوا من «الدوار» إذا خرجوا. وهم سالمون مثلما دخلوا بحال من الأحوال.

وما وظيفة الحكيم ؟

أليست وظيفته أن يشرح جثث الموتى. وأن يبقر بطون المصابين. أو يقطع أيديهم وأرجلهم لمجرد الإيذاء، أو لكي يفحصها ويلتذ بفحصها ؟، أو أن يسقي بعض المرضى «الفنجان» أي السم، ليموتوا. حتى لا يتعب في علاجهم. أو تلبية لرغبة العمدة الذي يرشوه للتخلص من خصومه الذين يصابون في الحوادث !

فما هم وهذا الحكيم ؟

أنهم ليسوا قتلى يشرّحهم، وليسوا مصابين يقطع أوصالهم أو يسقيهم «الفنجان». ولكن أو يستدعيهم إلا لأمر ما ؟... أخف شيء يصنعه بهم، هو «التجريح». وهو الاصطلاح الذي يطلقونه على عملية التطعيم. تلك العملية المرعبة التي يندب لها بعض معاوني الصحة، وبعض الممرضين في الحين بعد الحين، فتروّع القرية ترويعاً ... وما إن يعلن أن في البلد «الحكيم الصغير» (تمييزاً له من «الحكيم الكبير» الذي يطلبهم الآن والذي يرافق النيابة دائماً ولا يحضر منفرداً) ما إن يعلن هذا في القرية حتى ترتج وترتجف، فتخرج الأمهات إلى الشوارع مولولات مذعورات يلتقطن أطفالهن من كل مكان في ذعر وعجلة، ثم يغلقن على أنفسهن الأبواب. ويصعدن إلى السطوح استعداداً للقفز عليها من بيت إلى بيت، فكثيراً ما يدق هؤلاء الشياطين الأبواب، ويكسرونها بمساعدة الخفراء، ويهجمون على من فيها «للتجريح!».

فأما من تستطيع القفز إلى البيوت المجاورة، فلن تقصر في سلوك طريق النجاة، وأما من لا تستطيع، فإنها تختبىء في صومعة الغلال، أو في خم الدجاج، حيث لا يخطر على قلب «الحكيم» أنها هناك!

هذا هو الحكيم الذي يعرفونه ... فما بالهم بالحكيم الكبير الذي لا يحضر إلا مع النيابة، والذي لا يقع أحد في يده، ثم ينجو إلا بمعجزة من معجزات القدر، أو ببركة «تميمة» لولي من كبار الأولياء؟

وارتجفت مفاصلهم جميعاً وهم يسمعون الخبر الفاجع، واصفرت وجوههم، وعلا صوت بعضهم بالنحيب والعويل.

وعبثاً حاول «الأفنديات» أن يهدئوا من روعهم، وأن يبعثوا بالطمأنينة إلى نفوسهم، بأنهم سيرافقونهم، وأنهم لن يتركوهم وحدهم.

يرافقونهم !، وماذا يعني ؟... إنهم ذاهبون إلى الحكيم... فما غناء الأفنديات وغير الأفنديات ـ وذلك مع احترامهم الكبير لهم واعتقادهم أنهم من طينة أخرى غير طينة القرويين ـ إلا أن الأمر اليوم أمر الحكيم، لا أمر مسألة بشرية، مما يجدي فيه البشريون !.

• • •

ولما لم يكن من المقدر بد، وقد قيل لهم: إنه لا فائدة من محاولة الهرب، فإنهم سيقادون صفوفاً في حراسة خفراء القرية، بإشراف «الأفنديات»... ثم إن أسماءهم راحت للحكيم من دفاتر المدرسة فإذا هرب منهم أحد فسيقبض عليه، حيث يتعرض للعقاب !

لا مفر إذن من المقدور ! وليكن ما يكون !

ولكن ألا يسمح لهم بإخبار أهليهم، ورؤية بيوتهم وعائلاتهم قبل أن يساقوا إلى هذا المصير المجهول ؟

وقيل لهم إن هذا أيضاً ممنوع ... فساروا صاغرين .

* * *

ووصلوا إلى الدوّار، ولا يعلم إلا الله كيف وصلوا . ووقفوا صفاً طويلا، أوله في داخل الدوّار – أي في منطقة الخطر – وآخره في الشارع أمامه ... وعن اليمين وعن الشمال وقف الخفراء ببنادقهم «ولبدهم» الطويلة – جمع لبدة – ووقف أحد الأفنديات في أول الصف وأحدهم في آخره . أما الناظر فقد سبقهم إلى الحكيم ليطمئنهم قليلا، ويظهر أمامهم بمظهر الشجاعة المطلوب !

وكان ترتيب الصف حسب الطول، فتقدم كبار التلاميذ، وتبعهم الصغار أو القصار . وفي هذه اللحظة فقط أصبح القصر نعمة كبرى من نعم الله !

فأما الذين تقدموا فلا يعلم عنهم أحد شيئاً إلا الله، وأما المتخلفون فهم في تطلع مستمر وقلق دائم، ينتظرون ماذا سيفعل بأول الداخلين، ليعرفوا نوع المصير الذي ينتظرهم بعد حين !

وكانت مفاجأة حينما بدأ بعض الكبار يخرجون، بينما بقية الصغار لا يزالون في الصف الطويل ... وانبعثت الصيحات والأسئلة التي لم يستطع كبحها الخفراء ولا الأفنديات :

– دخلتم للحكيم ؟

– نعم دخلنا !

– وماذا صنع بكم ؟

– لا شيء ! غزّنا في أصبعنا بالدبوس وشفط الدم !

الدم ! ولكن رؤيتهم لهم أحياء أصحاء مطمئنة على كل حال !

– وماذا هذا في أيديكم ؟

– حق من الصفيح نأتي فيه بعينة براز وزجاجة صغيرة نأتي فيها بعينة بول !

– عينة براز وعينة بول ؟ ولماذا ؟

– لا ندري ! هكذا طلب منا الحكيم !

– الحكيم نفسه طلب منكم هذا ؟

– لا ... الحكيم الكبير غزّنا . والحكماء الصغيرون سلمونا الحق والزجاجة وطلبوا منا العينة للحكيم !

• • •

وتوارى الفزع قليلاً ليحل محله التساؤل المصحوب بالدهشة والاستغراب لهذا الطلب الغريب ! إن أحداً لم يطلب إليهم مثل هذا الطلب من قبل . وماذا يصنع الحكيم بهذه العينات العجيبة ؟ إنهم إن فهموا غزهم بالدبوس وشفط الدم؛ فإنهم لا يفهمون طلب العينات . إن الغز والدم لازمتان طبيعيتان للحكيم ... ولكن هذا ؟ من يدري ؟ إنه الحكيم !

وعلى سهولة الطلب ورخصه فإنه بدا صعباً عزيزاً في كثير من الحالات ... لقد طلب إليهم جميعاً أن ينطلقوا إلى دورات المياه بمساجد القرية، وأن يعودوا بعد نصف ساعة ومعهم المطلوب ...

وليس كل تلميذ بمستعد لتلبية هذا الطلب في مثل هذا الوقت، ولا سيما أن «الفسحة» المدرسية كانت قد أفرغت ما في البطون... لو كان هذا قبل الفسحة لكان كل شيء حاضراً - وبخاصة إحدى العينتين التي لا تأتي هكذا عند اللزوم!

فأما الذين كان في أمعائهم بقية فقد انطلقوا مطمئنين؛ وأما الذين أحسوا أن أمعاءهم لا تستجيب لهم، أو حاولوا ولم يفلحوا، فقد علا وجههم الاصفرار، وارتفعت دقات قلوبهم من الخوف، وركبتهم الحيرة التي تركب المذعورين!

ماذا يصنعون؟ وكيف يعودون إلى الدوار، أو كيف يغيبون عن الموعد المرسوم؟

إن أقل ما يتصورونه إن هم عادوا فارغين أن يبقر الحكيم بطونهم ليتناول منها العينة المطلوبة، أو أن يدخل في أجسامهم قنوات طويلة لسحب هذه العينة. وفي الأولى الموت أو خطر الموت، وفي الثانية العار أمام إخوانهم وعند القرويين!

ومن ذا الذي يعصمهم من هذا المصير، وهم بين يدي الحكيم؟ إن أهليهم على شدة بأسهم وقوة أجسامهم لا حول لهم ولا طول أمام أخطر رجل في الحكومة... صنو النيابة... وكفى!

وهنا تتفتق الحيلة، وتبدو قيمة التعاون!

إن التلاميذ لأخوة، فمتى تظهر قيمة هذه الأخوّة إن لم تظهر الآن؟!

لقد انطلق المحرجون يرجون إخوانهم أن يمدوهم بعونهم، وأن يتولوا عنهم ملء هذه الأحقاق الصغيرة ! ملأها . فلقد كثر التساؤل بينهم : أو يكفي نصف الحق أم لا بد من ملئه ؟... وكانت أغلبية الآراء تشير بأنه لا بد من امتلائه إلى نهايته فأصبح هذا هو المقرر في أذهان الجميع !

وهنا تظهر الطبائع على حقيقتها فالشدائد هي أفضل محك لها ! فأما ذوو الأصل الطيب والطبع النبيل من التلاميذ فقد تقدموا لمعاونة زملائهم بلا تردد . وأما قليلو الأصل وذوو الطبائع اللئيمة، فبعضهم امتنع شفاءً لحزازات قديمة، وبعضهم تمنع لؤماً وانتهازاً للفرصة !

ولكن هذا التعاون لم يسد الحاجة إلا إلى حد معين، وبقي عدد كبير من الإخوان الذين لا يجدون ما ينفقون !... وهنا تفتقت عبقرية أحدهم عن حيلة بارعة :

إن في مراحيض المساجد متسعاً للجميع !

أما كيف كان ذلك؟ فلا بد من بيان عن هذه المراحيض :

كان في القرية حوالي عشرة مساجد مبنية كلها على الطراز العتيق. وكانت دورات المياه بها عجيبة فهي مؤلفة من «مغطس» هو حوض مبني من الطوب ومطلي بالسمنت من الداخل والخارج، يملؤه عامل خاص يمتح بالدلو من بئر المسجد ويصب فيه حتى يمتلئ. وفي الحائط الخارجي للمغطس ركبت صنابير تصل من البناء مباشرة إلى الماء بداخله . ومنها يتوضأ المصلون ...

ولكن المغطس لا يستخدم فقط للوضوء ... إنما هو الحمّام المختار لعدد كبير من الناس الذين يعوزهم الماء في بيوتهم للغسل حين يحتاجون، فيذهبون إليه في جنح الظلام قبيل الفجر حيث يتسورون حائطه، ويرفعون غطاءه الخشبي. ثم يغطسون. فينقون أجسامهم من الأوضار المادية والمعنوية، ويدعونها هناك للمتوضئين!

ويلحق بدورة المياه المراحيض. وبناؤها عجيب، فهي تقع في صف طويل، يفصل بين كل اثنين منها حائط، ولكنها من الداخل متصلة بقناة مكشوفة يجري فيها الماء للجميع من منفذ في الحوائط الفاصلة بسعة القناة. وتملأ هذه القناة بالماء من البئر كما يملأ المغطس. ومن هذا الماء «الجاري» المتصل يتناول المصلون وغير المصلين للاستنجاء بأيديهم، وهم داخل المراحيض. والماء يجري ويتصل بالجميع!

أما بناء المراحيض ذاتها فأعجب. فالمرحاض يتكون من «كتفين» يجلس فوقهما من يريد. وبينهما فجوة واسعة تضطر الجالس إلى أن يباعد ما بين رجليه كي لا يسقط في الفتحة الكبيرة، ...في هذه الفتحة يتساقط ما يتساقط فيتراكم قريباً من الجالس، لأن خزانات المساجد محدودة، والعدد الذي يتردد عليها ضخم جداً – إذ ليس في المنازل مراحيض إلا نادراً – وجميع الرجال والأولاد الكبار يلجأون إلى المساجد والحقول، أما النساء والأطفال ففي سطوح المنازل متسع للجميع!

وتبقى هذه الحالة طوال السنة. والرائحة التي لا تطاق تنبعث

من هذه المراحيض المكشوفة، والمواد النازلة على مرأى من الجالس لقضاء الحاجة، والبعوض يتبادل مواقفه تارة على هذه المواد المكشوفة، وتارة على وجوه الجالسين ؛ فإذا خلت منهم المراحيض أخذ طريقه إلى المصلين وإلى البيوت المجاورة جيئة وذهاباً حيثما يريد !

وفي موعد خاص يستقدم «السرباتية» أي الذين يكسحون المجارير يستقدمون من المدينة القريبة بمقاولة خاصة لنزح خزانات مسجد أو عدة مساجد ... ولهذا النزح طريقة عجيبة .

إن العربات الخاصة لم تكن تستخدم هناك على النحو المتبع في بعض المدن الخالية من المجاري . وما الداعي لهذه العربات ؟ وهناك طريقة طبيعية مقتبسة من البيئة الزراعية ؟ !

ألا تستخدم القنوات في الحقول لنقل الماء من مكان إلى مكان ؟ فلماذا لا تستخدم كذلك في نقل هذه المواد من المجارير إلى الحقول ؟ !

ألا إنها لتستخدم ! فما هو إلا أن تحفر قناة مكشوفة من المسجد الذي يراد كسح خزاناته إلى الحقول خارج القرية، وتمر هذه القناة بالبيوت والحوانيت في وسط الشارع ، ثم يربط جردل بحبل ويعلق هذا ببكرة، ويقف عاملان يتناوبان فوق الخزان، يملأون هذا الجردل من الخزان ويصبونه في أصل القناة . وبعد هنيهة يجري التيار حاملا كل شيء إلى الحقول المحظوظة بهذا السماد الطبيعي الثمين !

هذا وقد يتفق أن تكون عدة مساجد متفرقة في القرية في حاجة إلى التطهير، فتوفيراً للقنوات المتعددة، توصل قناة بقناة، وإذا بالقرية كلها شبكة واحدة من القنوات المتصلة ... ولا على سكان البيوت والحوانيت أن يتمتعوا بالمنظر الفذ والرائحة القوية اسبوعا أو اسبوعين... فتلك بيوت الله، ولا يجوز أن يتأذى أحد من فضلات المصلين !(١)

• • •

قرب المواد المطلوبة في فتحات هذه المراحيض العجيبة، هو الذي فتق الحيلة البارعة التي نبتت في ذهن هذا التلميذ العبقري !

وما إن طلع بها على إخوانه الملهوفين، حتى طلع عليهم الفرج بعد الضيق ... وما هي إلا دقائق حتى كانت الأحقاق كلها مليئة، فتسلمها الحكماء في اطمئنان عميق ... وسمح للتلاميذ بإجازة بقية اليوم، فعادوا إلى منازلهم غير مصدقين !

• • •

وعلم فيما بعد أنها كانت بعثة طبية للقيام بإحصاء طبي عن حالات الأنيميا والبلهارسيا والانكلستوما والإسكارس .

ولكنه لم يُعلم كيف كانت النتائج التي دونتها البعثة في إحصاءاتها الرسمية الوثيقة ! ! !

---

(١) تغيرت هذه الطريقة الآن وأصبحت العربات المقفلة تستخدم كما في بعض المدن .



سيّد الحكيم
مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

لم يكن قد ذهب إلى المدرسة الأولية بعد ... كانت سنه دون السادسة ! حينما أصبح الصباح، وارتفعت الشمس قليلا، وتجاوز الوقت الضحى، فإذا جميع من في البيت مرضى، يقيئون ويتوجعون. بينما كانوا جميعاً بالأمس أصحاء تملأ أجسامهم العافية. ما عداه، إذ كان متوعكاً منذ أيام.

كانوا قد تناولوا طعام العشاء المؤلف من اللحم ومن نوعين من الخضر ومن الرز ومن البطيخ... أما السر في تعدد الألوان هكذا، فقد كان هو «الختمة» !

و«الختمة». كانت عادة موسمية في منزلهم، تكرر أربع مرات أو خمساً في العام ... وفحواها أن يدعى بعض «الخطباء» أي قرّاء القرآن في المنزل لتلاوته، تبركاً وتيمناً ورحمة على أرواح الأموات ! في مواسم معينة : في يوم عاشوراء، وفي العيدين الصغير والكبير. وفي اليوم السابع والعشرين من رجب، وفي نصف شعبان ... كما كان يتلى طوال شهر رمضان.

وسميت ختمة لأن القراء الأربعة أو الخمسة كانوا يختمون فيها قراءة المصحف كاملا، يجوّدون بعضه، أي يقرأونه بصوت مرتل مرتفع. ويُسرون بعضه ... وهذا متروك لذمتهم ! فبعضهم — وهم الأتقياء — يتحرجون فيقرأون نصيبهم كاملاً في سرهم، إن لم يكن يوم الختمة فبعدها ؛ وبعضهم يهمهم ويتمتم ويمضغ بضع

آيات، وهو يرفع صوته بين آن وآخر بكلمة مفردة، أو مقطع من كلمة، يعود بعده إلى الخفوت والإسرار، ثم يعلن أنه انتهى من قسمه المقرر ... وصدق الله العظيم!

كان هؤلاء القراء يدعون قبل الختمة بليلة استعداداً للصباح المقبل، فإذا صلوا الفجر حضروا إلى الدار، وجلسوا في «دوار البيت» يتلون القرآن بصوت خفيض حتى تطلع الشمس، وعندئذ يقدم لهم طعام الإفطار، وهو غالباً من الأرز المطبوخ باللبن، أو من خبز القمح المفتوت في اللبن المسكر ـ وذلك إن كان هذا موسم اللبن بين الخريف والربيع ـ فإذا كان في الصيف وكان اللبن شحيحاً في المنزل وفي القرية، لأن حيوان اللبن يكون في هذه الفترة قد رفع ـ أي رفع لبنه وقطعه استعداداً للولادة في الخريف ـ فيما عدا الحيوان «الكندوز» وهو الذي لم يتم لقاحه. فيظل يحلب إلى العام التالي على ولادة العام الماضي.

إذا كان كذلك فإن طعام الإفطار يكون غالباً من العسل والجبن. مع خبز القمح في بعض الأحيان. أو مع الفطائر في أحيان أخرى ...

ثم يظلون يقرأون القرآن تارة بصوت مرتفع مرتل ترتيلا، وطوراً بصوت خفيض أو همهمة لا تكاد تبين. حتى يقترب الظهر فيخرجوا إلى الصلاة. ثم يعودون ليجدوا غداء من خبز القمح ومن الجبن والعسل حتماً ... فيأكلوا، ثم يقيلون إن كان الوقت صيفاً إلى العصر. أو يستريحون قليلا ويشربوا الشاي والقرفة

والمدفئات الأخرى إذا كان الوقت شتاء ... فإذا وجبت العصر خرجوا إلى الصلاة أو صلى بعضهم في الدار .

ثم يجتمعون مرة أخرى بعد العصر ، فيظلون يقرأون تلاوة وترتيلا بصوت عال يسمعه معظم أهل الحي... إلى المغرب حيث تقدم لهم الوجبة الرئيسية من اللحم والخضر والأرز والفاكهة الطازجة أو المطبوخة ... فيأكل بعضهم في تعفف وأدب . وهذه هي القلة القليلة ... أما الأكثرية الغالبة، فتتناول الطعام في نهم ظاهر ، وبطريقة خشنة عنيفة .

ولا يزال يذكر أن بعضهم كان يقسم الرغيف من الخبز الشمسي الكبير ، الذي يعادل ضعف رغيف المدينة ... إلى أربعة أقسام فقط ، ويغمس كل ربع في صحفة الطعام، بجشع ونهم ، بحيث يبتلع أكبر قدر ممكن من الإدام، ثم يرفعه والسمن يسيل على كفه كلها وكراعه وينقط على ملابسه كذلك ... ثم يقذف بهذا الحمل كله في فم واسع، وما يكاد يلوي شدقيه لية هنا ولية هناك، حتى يدهوره في بلعومه بصوت ظاهر، بينما تكون يده مشغولة بتحضير القضمة التالية ... وهكذا حتى يصل إلى الرغيف التاسع ، أو العاشر في مثل لمح البصر... ومن باب أولى يصنع ذلك باللحم والفاكهة . وكان اللحم يوزع عليهم بسخاء حتى ليبلغ نصيب أحدهم رطلين !

لذلك كانت طائفة القراء في القرية محسودة، وكان الإقبال على تحفيظ القرآن شديداً . فالقارىء مكفول الرزق معظم أيام

السنة، وهو يظفر من الطعام بما لا يظفر به كبار أثرياء القرية في كثير من الأحيان ... ثم هو يتناول بعد ذلك كله أجراً قد يبلغ خمسة قروش في كل ختمة، وإن كان المتعارف أن يكون نصف هذا المقدار ...

ولم تكن أيام «الختمة» هي كل الأيام السعيدة في حياة القراء فهناك المآتم وكانت تقام سبع ليال كاملة في القرية، يتلى فيها القرآن عصراً وليلاً وصبحاً في بعض الأحيان، ويقدّم فيها الطعام للقراء مرتين في اليوم، فيهما وجبة من اللحم والخضر حتماً وهي وجبة العشاء.

ثم هناك «الطلعة» وهي التي تعقب الأيام السبعة، حيث يذهب أهل الميت إلى المقبرة، ويتوافد عليهم المعزون؛ وهناك يقرأ القرآن، وينال القراء كمية لا بأس بها من «الفطير»... ثم يعودون إلى الدار فيقرأون «ختمة» شأنها شأن الختمات المستقلة في المواسم ... وهذه يستوي في إقامتها الفقراء والأغنياء.

وعلاوة على هذا الطعام الفاخر طوال الأسبوع يقبض القارىء أجراً سخياً نظير إحياء المأتم سبع ليال، قد يبلغ في بعض الأحيان نصف الجنيه، وغالباً يكون خمسة وعشرين قرشاً !

أما «سهرة رمضان» فكانت موسماً طويلا سعيداً لطائفة القراء ... فأكثر من عشرين بيتاً في القرية كانت تقيم هذه السهرة فتستغرق بين الأربعين والستين قارئاً — هم المحظوظون الذين ينظر

إليهم زملاؤهم بعين الغبطة أو الحسد ــ وهؤلاء يتناولون في كل ليلة سحوراً فخماً، وفي بعض البيوت يتناولون طعام الفطور أيضاً. فإذا كان العيد أقاموا «الختمة» وأكلوا الأكلة، وقبضوا أجرهم عالياً. جنيهاً في الغالب لكل «خطيب»!

فلا عجب إن كانت هذه الطائفة مرموقة في القرية... فهم ببركة كتاب الله الذي يحملونه على قلوبهم! مكفولو العيش، مستورون سعداء!!

• • •

كانت ليلة نصف شعبان، وكانت هذه الألوان المتعددة من الطعام، وتناولوا طعام العشاء بعد أن أكل «الخطباء» ووزع الطعام على الفقراء، وبقيت بقية من اللحوم ومن البطيخ «المشقوق» فباتت إلى الصباح!

وحينما متع النهار في الضحى، اجتمعت العائلة فتناولت شيئاً من اللحم مع الجبنة والخبز، وتناول بعضهم شيئاً من البطيخ... أما الطفل فنظراً لتوعكه لم يمس اللحم، وإنما تناول قطعة صغيرة من هذا البطيخ، مع لقمة مأدومة بالجبن... وكفى!

ولم تمض ساعة حتى بدأوا يشكون المغص، ثم يسبق بعضهم فيفرغ ما في جوفه، ويتأخر البعض قليلا ليلحق بالسابق ثم

يغلبهم الألم، ويأخذهم الدوار، وترتفع في المنزل كله نغمة واحدة : الأكل مشموم !

كانت العائلة إلى هذا الوقت صغيرة، مؤلفة من الوالدين وهذا الطفل الوحيد، وشقيقتين له إحداهما تكبره بثلاث سنوات والأخرى تصغره بهذا القدر أيضاً ...

ولكن كان يحيط بهذه العائلة الصغيرة عدد من الخدم. لم يكونوا خدما في الواقع كما يفهم سكان المدينة من هذه الكلمة ... كانوا ناساً من الفقراء، بعضهم يمت إلى العائلة بصلة القرابة في أصولها البعيدة، وبعضهم يجاورها في السكنى ... وكان هؤلاء، وفيهم الرجال والنساء والأطفال، يقومون بشؤون المنزل ـ ما عدا إعداد الطعام الذي كانت تنفرد به أمه حتما ـ في فترات من النهار والليل مقابل أكلة، أو شيء من الوقود الذي يلزم هم من روث الدواب وفي مقابل بعض الملابس التي يخلعها أهل البيت، ويستطيع هؤلاء الفقراء أن يجدوا فيها من الصلاحية ما لم يجده أهل الدار. ثم في مقابل كيلات من الحبوب في المواسم، وكميات من التبن وأعواد الذرة الجافة للوقود.

وكانت الصلة بينهم وبين أهل البيت صلة عائلية، لا صلة الخادم بالمخدوم. فهم يلقبون صاحب البيت «عمي الحاج» ـ وكان أبوه حاجاً ـ إن كانوا صغاراً، وينادونه بلقب «الحاج» فقط إن كانوا كباراً. بلا ذلة «سيدي» المتعارفة في المدينة !

أخذ أفراد العائلة واحداً بعد الآخر تظهر عليهم دلائل التسمم وارتفعت الصيحة : الأكل مشموم ... بالشين لا بالسين . والفارق بينهما هو تحديد التسمم بأن بعض الزواحف قد شمته . و كان الذهن ينصرف غالباً إلى «الثعابين» وفي بعض الأحيان إلى «الأبراص» .

فكل طعام يترك مكشوفاً – وبخاصة اللبن والبطيخ – يكون في اعتقادهم عرضة لأن يشمه الثعبان . يشمه أي يلعقه . و «يبخ» فيه . أي يترك فيه لعابه السام ... ومتى تناوله الناس سرى في أجسادهم السم سريعاً، كما وقع لهم جميعاً !

لم تمض ساعة حتى كان الخبر قد انتشر في جميع أنحاء القرية وحتى كان الناس قد بدأوا يفدون أفرادا وجماعات، فيهم الأهل والأصدقاء، وغير الأهل والأصدقاء . وازدحمت الدار على سعتها بالوافدين من الجنسين . فأما والده فكان قد فرش له في «الدوار» المستقل عن قسم «الحريم» وازدحم مكانه بالرجال من كل طبقة وسن . وأما هو ووالدته وأخاه، فكانوا في القسم الآخر، ولم يعد فيه موضع لقدم من الزائرات العائدات !

كانت الحالة تنذر بالخطر، والسوابق في القرية لا تبشر بالخير في مثل هذه الحالات التي كثيراً ما كانت تتكرر. ويكون سببها إما الأطعمة الفاسدة بسبب تناول «الطبيخ» البائت يومين أو ثلاثة . أو بسبب ثاني أكسيد النحاس الذي يتراكم في آنية الطبخ النحاسية، ثم يعزى دائماً إلى «شم الثعابين» !

أما في حالتهم هذه فأكسيد النحاس مستبعد ، لأن اواني الطبخ كلها كانت مطلية في اليوم ذاته بالقصدير ، لأن هذه المناسبة كانت تنال استعداداً خاصاً وتهيوءاً لها في كل شيء ! والغالب أن هذا التسمم نشأ عن فساد البطيخ المشقوق، فالبطيخ يناله هذا التسمم الذاتي في كثير من الأحيان.. وإن كانت بقيته قد تناولها آخرون من الخدم فلم يتأثروا إطلاقا وكذلك بقية الطعام !

وقد كانت هذه الظاهرة مدعاة لفرض آخر – غير شم الثعبان – ذلك هو ... الحسد !

فهذا اعتقاد شائع في القرية ... وهم كانوا محسودين . محسودين على أشياء كثيرة وبخاصة مستوى معيشتهم ، وهذا ما يثير أعظم الحسد في القرية، ولا يعادله شيء من مظاهر النعمة الأخرى ... فيكفي أن يطلع الناس على كمية اللحم التي تدخل البيت، وعلى كمية السمن التي تستهلك فيه، وعلى الفاكهة وسواها مما لا يتمتع به إلا بعض الناس، حتى تثور أحاسيس الحسد في نفوس العدد الأكبر من القرويين، وهم جد معذورين .

اتجه الرأي إذن إلى الحسد، لتعليل هذا التسمم الفجائي الجمعي لأهل البيت، بينما الذين تناولوا الطعام من الخدم لم يتسمموا ... ومع أن هناك تعليلات كثيرة لهذه الظاهرة، فإن تعليل الحسد، كان هو التعليل الأول المذكور .

ولكن والده وهو رجل متنور لم يقبل هذا التعليل، ولم يركن

إليه، فاتجه الرأي إلى التطبيب، وعلاج هذا التسمم بما يناسب من الترياق !

أما الطفل فلو أنك اطلعت على حقيقة شعوره في هذا اليوم لرأيته شعور البهجة والاغتباط... فهذه «الهيصة» في الدار. وامتلاؤه بالناس من مختلف الأشكال والطبقات، ودخول الناس وخروجهم، واهتمامهم الظاهر بهم وبه هو بنوع خاص – إذ كان وحيد العائلة – وهذه الحركة الدائبة التي لا تهدأ...

هذا كله كان يثير حسه، ويبهج خاطره – على الرغم من كل شيء – ولولا أنه كان متوعكاً من قبل، لتضاعفت هذه البهجة، فما في كل يوم يظفر بهذا الهرج والمرج في الدار ! ! !

• • •

بين هذه الجموع الدائبة الحركة، الكثيرة العدد، كان هناك رجل ملحوظ .. كان طويلا نحيفاً أبيض البشرة، يرتدي جلباباً أبيض نظيفاً، مفصلا على طريقة البندر لا طريقة القرية، ويرتدي فوقه مَيْدَعةً بيضاء نظيفة كذلك، ويلبس في قدميه «شبشباً» بادي الأناقة.

كان هذا الرجل الأنيق الملحوظ من بين الجمع كله، يأمر وينهى ولكن في رفق ولطف وظرف، وكانت أوامره ونواهيه تتعلق باستحضار كميات من اللبن، يتولى بنفسه إذابة مادة خاصة فيها،

ثم يأمر فتحمل في أكواب إلى المرضى ... فلقد كان هو المشرف على علاج هذا العدد الضخم من المسمومين .

ذلك الرجل الملحوظ ... هو سيد الحكيم !

ويجب أن تعرف أن هذا السيد هو أحد «التمورجية» المفصولين من المستشفى الأميري بالبندر ، وقد آثر ـ بعد فصله ـ أن يفتتح «عيادة» في القرية ، يتمتع فيها بلقب «الحكيم» ! ! !

ويذكر الطفل هذه العيادة : لقد كانت تشغل حجرتين كبيرتين نظيفتين فوق دكانين في سويقة القرية ... وطالما دخل هذه الحجرة «للغيار» على جروحه الكثيرة التي كانت تناله من «المطواة» الحادة التي يحتفظ بها دائما لتقطيع القصب ، وخدش الأبواب والنوافذ الخشبية . وقطع بكرات الخيط الفارغة نصفين وتصليحها لتعود «ظعانين» . جمع «ظعْنِينَة» . وهي أنواع من الخذروف يوضع في ثقبها نواة بلحة بحجمها ، ثم تدار بإصبعين ، فتدور فترة من الزمن ، تطول أو تقصر حسب قوة اللاعب . وصلاحية النواة للدوران . وثقل الخذروف !

ثم لمرافقة أخته الصغيرة ، وهي طفلة كانت أذنها مريضة ، وكانت تفرز مادة تجتذب إليها الذباب ، حيث يموت هنالك ، ويصبح وجوده خطراً ... وعندئذ يذهب بها إلى «سيد الحكيم» فيتولى تنظيف أذنها وإخراج الذباب منها بواسطة أنبوبة ضاغطة من المطاط .

ولم تكن هذه الأعمال الصغيرة وحدها هي التي يتولاها «سيد الحكيم» فجميع أنواع أمراض العيون، وأمراض البطون، وأمراض الصدر ... كانت تجد لها عنده دواء ... وكثير من «العمليات» كان يجري بالعيادة او في البيوت. ففتح «خُرّاج» في أي موضع من الجسم، وجبر كسر مهما يكن مركباً ... وعشرات من هذه العمليات البسيطة كان مشرط الرجل يجري فيها بكل اطمئنان !

ونوع واحد من العمليات لم يكن يقدم عليه، ... ذلك هو عمليات فتح البطن .. ولم يكن ذلك عن عجز – لا سمح الله – ولكن عن رقة قلب، وعمق إيمان ! فهذه العمليات الوحشية هي من خصائص «الحكيم الكبير». الحكيم الذي يحضر مع النيابة لتشريح الجثث وبقر البطون والتمثيل بالقتلى والمصابين !

أما هذا الرجل الطيب القلب، الوديع الأنيق اللطيف، فلا يقدم على هذه العمليات الوحشية وإنما هو آس لطيف رحيم ! وهو اليوم – يوم التسمم – في ميدانه الأصيل . ميدان الرحمة والتطبيب.

وأحب أن يفهم القارىء، أن هذا السيد كان صديق المتنورين فحسب من رجال القرية، وهم الذين كانوا وحدهم يلجأون إليه بأنفسهم وأبنائهم حينما يصيبهم مكروه ... وذلك تمييزاً لهم من الآخرين الذين يلجأون إلى الوصفات البلدية وإلى حلاقي القرية ..! إن أصدقاء هذا السيد هم المؤمنون في القرية بالطب الحديث ! ! !

وكان أن شفي المتسممون جميعاً. فكان هذا سبباً في زيادة شهرته وارتفاع صيته، وإقبال الكثيرين عليه حتّى من غير المؤمنين بالطب الحديث!

ولم تكن أتعاب هذا السيد كبيرة ولا مرتفعة، فهي لا تتجاوز القرش والقرشين بما في ذلك ثمن الدواء... أما كيف كان يعيش من هذا الدخل القليل، فيجب أن تعرف أن البلدة كريمة مضيافة. فالعيادة بالمجان لا أجر لها وفيها يبيت، وهو قلما يتناول الطعام على حسابه، فهو كل يوم ضيف عند أحد أصدقائه من سراة القرية المتنورين... أولئك الذين يؤمنون بالطب الحديث، لا بالخرافات والتدجيل!!

• • •

أما الحادث الذي استطارت به شهرته، وارتفع به إلى ذروة المجد. فهو حادث آخر أعقب حادث التسمم. وارتجت له القرية ارتجاجاً، بما اجتمع له من شتى العناصر التي تعود إلى أشد الاهتمام:

كان من بين الأولياء الكثيرين في القرية، ولي عظيم عائش، (والأولياء أحياء وأموات وهم طبقات ودرجات). كان ولياً من بيت أولياء، تتوارث اسرته الولاية من عهد بعيد. وكانت «شربته» ثقيلة! لأنها كانت شربة عظيمة. ومقامه في ديوان الأولياء لا يعلو عليه إلا أربعة «المُدّرَكون»: السيد البدوي، وسيدي ابراهيم

الدسوقي، وسيدي عبد القادر الجيلاني، والقطب المتولي، وعلى رأس الجميع «قطب الغوث» كما مرّ في صورة «المجذوب»!

وحتى الشيخ «عبد الفتاح» وليّ هذه القرية الميت، الذي تنسب إليه، فيقال في موضع اسمها الرسمي: بلد الشيخ عبد الفتاح: لم يكن في مرتبة هذا الولي العائش «الشيخ بكر» ولو أنه أقدم منه وأعمق في النفوس!

ونظراً لقوة الشربة، فإن الشيخ كانت لا تزال تعاوده حالة «الجذب» العنيفة مع حالة الولاية الهادئة، وكثيراً ما تغلب عليه الحالة الأولى، فيظل عدة أيام مهتاجاً، لا يستطيع أحد أن يقرب منه، إلا إذا شاء أن يستمتع بلذة العصا، ليداوي بضربتها عضواً موجوعاً!

ثم تعقبها حالة صمت مطبق، وصيام دائم. فلا يأكل ولا يتكلم ولا يقابل أحداً، ولا يتناول في المدى الطويل إلا البلحة والبلحتين، مع قليل من الماء في صمت مطبق مقيم!

وتارة يكون هادئاً فيستقبل زائريه الكثيرين. الذين يفدون على داره من شتى القرى المجاورة. والسعيد السعيد من استطاع أن يلمس طرف ثوبه، أما الذي يستطيع منهم أن يلمس كفه أو يقبلها فذلك هو الفائز في الدنيا والآخرة!

ولكن الشيخ لا يتكلم كلاماً صريحاً قط. إنما هي رموز قصيرة، وإشارات مبهمة، إلا أن لكل رمز تفسيراً، ولكل إشارة معنى،

يتناوله القريبون من الشيخ من أهل بيته ومن المتصلين به . فإن كان خيراً بشّروا به أصحابه، وإن كان شراً ادعوا أن لا علم لهم بمقاصد الشيخ، فعلم ذلك عند الله ... وفي هذه الحالة يدرك أصحاب الحاجة أنها لم تقض وأنهم خائبون، فينتظرون لحظة أخرى يكون الشيخ فيها أكثر رضاء عنهم، وأشد استجابة لهم. أو تكون أبواب السماء مفتوحة، فتستجيب لهم عن طريق الشيخ المستجاب، لو دعا، وهو لا يدعو إلا أن يكون واثقاً من الجواب ! !

فإذا استحم الشيخ ونادراً ما يستحم . فالماء المبروك الذي استخدمه وحمل خيرات جسده ماء مقدس، يحفظه أهله ليوزع بمقدار على المقربين المنتظرين . بعضهم يشربه، وبعضهم يغسل به عينيه وبعضهم يحفظه في زجاجات للضرورات !

على بيت هذا الولي تتقاطر الوفود، وتتكاثر الهدايا : كل بمقداره .. والبيت مورد للضيوف من كل جهة . بعضهم يصب فيه والآخر يستمد منه .. والحركة دائبة، والخيرات كثيرة .. وكلها ببركة الشيخ العظيم .

والبيت فوق هذا كله ... مستشفى !

فكل مريض استعصى شفاؤه، يلزم بيت الشيخ لزوماً، ولا يكتفي بالزيارة والبركة المتقطعتين . وهذه الإقامة لا يتمتع بها كل الناس، فهي لخاصة الخاصة من العائلات العريقة الصديقة، تلك التي لها خطر وخاطر عند الشيخ وعائلة الشيخ . وإلا فلقد كانت حجرات البيت وفناؤه لا تتسع كلها للراغبين .

كان من هؤلاء المحظوظين بالقرب من الشيخ فتاة شابة من أسرة عظيمة الثراء في بلدة مجاورة ... أصيبت بالجنون، وجاء بها أهلها إلى دار الشيخ، وكانت أبواب السماء مفتوحة، فاستجاب لهم الشيخ وأذن لها في الإقامة ... فخصصت لها حجرة مفروشة هي وجاريتها الخاصة التي ربتها، على سُنّة بنات الأثرياء في الصعيد.

ولسنا في حاجة إلى وصف الهدايا التي كانت تحمل إلى بيت الشيخ في نظير هذه الإقامة العزيزة. ولكن يكفي أن نقول : إن جملين محملين بالغلال والذبائح والحلوى والسكر والفاكهة، كانا يدخلان البلدة في كل أسبوع، ويفرغان في بيت الشيخ، غير الملابس والنقود !

* * *

صحا الناس ذات ليلة على صراخ حاد وولولة واستغاثة، وهبوا من نومهم، ليروا النار مشتعلة في بيت الشيخ. إنه الحريق!

والحرائق في القرية لم تكن تنقطع وبخاصة في الصيف بعد دخول المحصول، وتخزين الوقود من بوص الذرة وحطب القطن فوق السطوح... وهي المكان الوحيد المتاح للقرويين في بيوتهم لهذا التخزين. ولم تكن نداءات الحكومة المتكررة بعدم تخزين الوقود فوق الأسطح اتقاء للحريق لتجدي نفعاً ! فالمثل المعروف يقول : إن أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع. والقرويون

لا يستطيعون أن يجيبوا أوامر الحكومة هذه لأنها لا تستطاع!

وكان المعتاد في مثل هذه الحالات، أن يصحو أهل البيت ليروا النار تشتعل في دارهم، فتطلق النساء أصواتهن مُعْوِلات مستنقذات، ويرفع الرجال أصواتهم بالاستغاثة: «جاي يا أولاد جاي»! فيكون هذا نذيراً بتوجه الناس إليهم من كل حدب وصوب، وباستيقاظ السقائين بوجه خاص، يحملون الزّقاق التي يملأونها بالماء من الآبار في عنف وجهد، إذ يستخدمون بكرة وحبلا ودلواً للمتح من قاع الآبار البعيدة الغور .. ثم ينطلقون بهذه الزقاق يحملونها على ظهورهم من مسافات بعيدة ليكافحوا بها النيران، التي سرعان ما تثب من بيت إلى بيت بحكم تجاور البيوت، واتصال سطوحها وتجاور المواد القابلة للاشتعال .. فإما أن يرفعوا الماء بطريق الضغط المحلي، وذلك بإقفال فم الزق إلاّ فتحة صغيرة يخرج منها الماء مضغوطاً إلى حد ما فيرتفع ارتفاعاً محدوداً، وإما بتسور المنازل المجاورة وصب الماء منها على الحريق إذا كانت الحالة تسمح لهم بذلك. بينما بقية الرجال يحاولون إنقاذ السكان.

ولعل سائلاً يسأل من سكان المدينة المترفين : وأين مضخات الحريق ؟

مضخات الحريق ؟ إنها في المدينة يا سيدي وبينها وبين القرية أمد بعيد ! ! !

صحت القرية كلها كما تصحو عادة لكل حادث، وازداد صحوها حينما تناقلت الألسن أن الحريق في دار الشيخ ... في دار

الشيخ ؟ أو ممكن هذا ؟ أيحترق بيت الشيخ والشيخ فيه مقيم ؟ نعم يجوز، ولا بد من حكمة في هذا، ولا بد أن الشيخ غاضب على أحد ممن فيه.، وسرعان ما أعلن اسم المغضوب عليه، فهو ابنه .. ابنه الأصغر الذي كان سبباً في هجرة ابنه الأكبر من الدار، بشجاره معه وعنفه عليه، على غير إرادة الشيخ ... فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم !

على أية حال لقد انطلقوا يطفئون الحريق بكل ما فيهم من قوة. فغضب الشيخ لا بد أن يفثأ، وثورته لا بد أن تهدأ .. ومن الواجب أن تطفأ النار أولاً، فالنار شيء مرعب مخيف.

واتضح بعد حين أن النار قد التهمت جناحا كاملا من البيت هو جناح هذا الابن وزوجه، ومن ضمنه الحجرة المخصصة للفتاة المجنونة !

وحينما هدأت الحال وكان قد طلع الصباح، وراحوا يتفقدون كل شيء. وجدوا الابن وزوجه سليمين، فقد هربا قبل أن تلتهمهما النار، ولكنهم نظروا في حجرة الفتاة فلم يجدوا إلا جثة محترقة قد استحالت قطعة من الفحم، ولم يجدوا سواها أحداً ! وكانت الهزة عنيفة، وكانت الصدمة قاسية. ولكن هذا كان هو المقدور !

• • •

لم يكن بد من تبليغ الحادث إلى المركز. ففي الأمر قتيل

وفيه كذلك فقد شخصية أخرى ـ غير القتيل ـ لا يعرفون عنها شيئاً . والعمدة إذن لا يملك «التستر» على الحادث، كما يقع في معظم مثل هذه الحوادث ، وسواها من حوادث السرقة والشجار التي لا يصل فيها الأمر إلى حد القتل .

ولم يكن بد إذن من حضور النيابة ومعها الحكيم الكبير لتشريح الجثة . للاهتداء لشخصية المحروقة : أهي الفتاة المجنونة أم هي جاريتها؟ لم يكن يستطاع معرفة أيهما باللون أو بالحجم أو بالطول . فأما اللون والحجم فلا سبيل إليهما، فقد استحالت فحمة محترقة، وأما الطول فقد كانتا متقاربتين.. بقيت علامات موضعية، فالفتاة عذراء لم تحمل ولم تضع ، والجارية سيدة حملت ووضعت، فحجم الحوض وتركيبه إذن يمكن أن يفيد .

وقرر الطبيب الشرعي أن الفتاة هي التي احترقت، وأن الجارية هي الشخصية المفقودة . وانتهى التحقيق .

ولقد حدث في أثناء قيام الطبيب بمهمته، وقيام المحقق بمعاينة دار الشيخ، أن ادركته نوبة من النوبات الحادة المعتادة، فهمّ أن يهجم بعصاه على الطبيب والمحققين . فأمر المحقق بالقبض عليه، لولا تدخل العمدة الذي أسرّ إليه بأنه رجل وليّ، وللقرية اعتقاد فيه عظيم، وأنه يخشى ثورة الأهالي لو اتخذ معه إجراءً شديداً، فاكتفى بتهديده، واشترك الطبيب في هذا التهديد، فقال له ساخراً : لئن وصلت إليّ لأشرحنّ بدنك بهذا المشرط...

وكف الشيخ عن التدخل، وعاد إلى قواعده سليماً!

* * *

ولم تكن هذه المسائل كلها لترضي أحدا...

فأولا – لا يجوز أن تحترق الفتاة، وهي في رعاية الشيخ، وتنجو الجارية. وإن لم يعرف لها مكان...

وثانياً – لا يجوز أن يلقى الشيخ تهديدات الطبيب دون رد فلا يبين كراماته معه!

ويظهر أن الطبيب في أثناء عمله كان قد طلب حلاق الصحة ليساعده، فقيل له إن في البلد «سيد الحكيم» فأراد أن يعرف من هو هذا السيد فاستدعاه، ولما علم أنه «تمورجي» سابق، استعاض به عن الحلاق.

من هذه العناصر كلها انطلقت أسطورة طويلة عريضة، تطوف أرجاء القرية كل يوم مرات، وتعيش زمناً طويلا، بل لا تزال تعيش إلى اللحظة الحاضرة.

إنه في أثناء تشريح الجثة وقع خلاف بين الحكيم الكبير وسيد الحكيم. فأما الأول فيقرر أن المحترقة هي الفتاة والغائبة هي الجارية؛ وأما الثاني فيجزم بأن المحترقة هي الجارية والغائبة هي

الفتاة ... ولكن الحكيم الكبير «شخط» في سيد الحكيم حتى لا يبطل كلامه، فسكت مقهوراً. والحق معه ... معه بكل تأكيد!

أما هذا الحكيم الفاجر المستهتر الجاهل بالشيخ وكراماته، فإن أصبعه قد جرحت جرحاً صغيراً جداً في أثناء عملية التشريح، بعد أن تركه الشيخ مباشرة، وما كاد يصل إلى أسيوط حتى كان الجرح قد امتلأ بالصديد، فعملت له عملية قطعت فيها أصبعه، ولكن بعد يوم آخر كان الصديد قد ملأ الذراع، فعملت له عملية ثانية بترت فيها الذراع.. أما في اليوم الثالث فإن «الغنغرينة» كانت قد ملأت بدنه، وعجز الأطباء كلهم عن إنقاذه.. فمات!

وهكذا انتقمت الجماهير لشيخها، واستردت اعتباره. وأرضت شعور أهل الفتاة الخفي وآمالهم القوية في أن تكون ابنتهم على قيد الحياة.

ثم ماذا!؟

ثم استطارت شهرة لا تحد لسيد الحكيم، الذي غلب الحكيم الكبير!

• • •

ومع أن الجارية قد وجدت بعد ذلك هاربة مذعورة مختلة

الأعصاب لشدة ما نالها من الذعر . فإن الناس جميعاً ـ وأهل الفتاة خاصة ـ ظلوا يعتقدون انها الفتاة الهاربة، اسود وجهها من الرجفة، وانعقد لسانها فلا تبين . ولولا أنها ماتت بعد قليل لورّثوها أموالهم وضموها إلى أنسابهم، لأن الشيخ لا يقهر، وسيد الحكيم لا يخطىء ...

وعاشت هذه الأسطورة في القرية وما زالت تعيش !



العفاريت



العفاريت

كانت الليلة قمراء ... وإلا لما خرج هو ورفاقه الصغار بعد الغروب ، و لما جلسوا هذه الجلسة الهادئة فوق المصطبة ، يقصون " الحواديت "و لما استطاعوا بوجه خاص ان تكون جلستهم أمام هذه الطاحونة العتيقة ، ذات الشهرة المستفيضة بالعفاريت ! كانوا قد تنادوا بعيد الغروب ، و بعد تناول العشاء ... فطاف السابقون منهم بالدور يتصايحون باتشودتهم العذبة الجميلة ، التي يستطيعون فهم بعض مقاطعها ،أما البعض الآخر فمجرد استجابة للسجع و الغناء ...
انطلقوا يتصايحون:
"اللي ما يطلع ويلعب.
يقرصه حي و عقرب.
حتى الحاوي ما يحوي.
حتى الداوي ما يدوي ..
سن الفار .
عند العطار.
يضرب بالطار.
يا حلاوته. " !

و هم في كل لحظة يتكاثرون . بمن يخرج اليهم من الصبية ، وكلما مروا ببيت ، وسمع صبية هذه الدعوة التي لا قبل لهم بالتخلف عنها ، زعموا لأهلهم انهم لا بد ان يخرجوا ، و إلا حق عليهم هذا الدعاء ، وقرصهم الحي – أي الثعبان – و العقرب ، حيث لا ينفع في طبهم حواء الحاوي و لا دواء الداوي!
و بعد ان تجمع شملهم آووا إلى هذه المصطبة مطمئنين بالقمر الساري المنير ، وانسجموا في القمراء و السكون الشامل في القرية حتى عادوا أطيافا صغيرة ساكنة تنصت " للحدوتة " التي يديرها أحدهم ، والآخرون كلهم آذان...

حتى عادوا أطيافاً صغيرة ساكنة تنصت «للحدوتة» التي يديرها أحدهم، والآخرون كلهم آذان ...

وفجأة يقفز من نافذة الطاحونة الصغيرة العالية قط أسود، فيهبط إلى أرض الشارع قريبا من المصطبة وينطلق مسرعا.

أيها القارىء، إذا كنت قد شهدت منظر العصافير تلقط الحب في الأرض ثم تفاجأ بجارح ينقض من السماء، أو بصائد يصوب إليها ليصطاد ... فإنك مستطيع أن تتصور منظر هؤلاء الصبية، حينما ركضوا مذعورين ، لهذا الطارىء المفاجىء المخيف!

عفريت ! ! !

هذه هي الصيحة التي انطلقت من أفواههم جميعاً قبل أن يطيروا مذعورين، كل منهم في الاتجاه الذي جرت فيه خطوته الأولى، فقادته إليه قدماه في غير انتباه...

كلهم ... إلا «جمعة» وجمعة هذا صبي بدين ساذج طيب القلب، يتيم من الأم، وكان مسكنه يجاور مسكن الطفل، وهو رفيق طفولته العزيز، على الرغم من الفوارق العائلية الكبيرة بينهما، إذ كانت جدته لأبيه، من أولئك الذين يتولون المساعدة في مرافق الدار... ولكن هذا لم يكن ليفرق بينهما، ولا ليخدش صداقتهما البريئة!

جمعة هذا لم يتمالك قواه، ولم تسعفه قدماه، فتلجلج واضطرب، وكان القط قد ذعر لحركة الأطفال المفاجئة، فجعل

يتأرجح في اتجاهه، فحسب الطفل المسكين أن العفريت يحاوره، وبذلك فقد توازنه نهائياً فسقط مغشياً عليه كالأموات !

وكان صاحبنا قد لحظ سقطة زميله العزيز، ولكنه لم يكن في موقف يسمح له بمساعدته، حتى إذا أبعد في الجري مع زملائه، وتفقد رفيقه فلم يعد... عاودته الرغبة الملحة في أن يعرف مصيره. فجعل يزين لبعض الأطفال أن يعودوا للبحث عن زميلهم المتخلّف، فاستجاب له بعضهم في خوف وتردد، حتى إذا اقتربوا من ميدان الموقعة كادت تخونهم شجاعتهم، لولا أن اندفعوا في يأس، فما راعهم إلا زميلهم جثة، ولكن لا تزال تتردد فيها الأنفاس.

وعبثاً حاولوا أن يعيدوا إليه انتباهه، وطال وقوفهم بالبقعة الرهيبة فآثروا أن يتكاثروا عليه، وأن يحملوه متعاونين إلى مكان أمـين.

ولم يكن بيته بعيداً، فطرقوا الباب، وفتحت جدته لتستقبل حفيدها جثة، وهي مضطربة مذعورة، وبخاصة عندما سمعت القصة، وأيقنت أن الولد قد مُسّ...

وعبثاً حاولت الجدة المسكينة أن تستعيد لحفيدها صحته بكافة الوصفات في الأيام المقبلة...

لقد رشت الماء والملح، من المصطبة التي هبط عندها العفريت إلى باب الدار... ولقد لجأت إلى أولياء القرية تستجديهم إنقاذ

حفيدها الوحيد بالتمائم والتعاويذ ... ولقد أقامت له حفلة زار أنفقت فيها كل ما تدخر من القروش والملاليم ... ولكن شيئاً من هذا كله لم يفد. فلقد أخذ الطفل يهزل يوماً بعد يوم. وبعد ثلاثة أشهر كان قد فارق الحياة !

وسار في جنازة رفيقه يبكي، وكانت هذه أول جنازة يشهدها، وارتسمت الحادثة كلها في ذاكرته لا تمحى ... ولم يعد إلى هذه الجلسة في القمراء إلا بعد مضي ثلاث سنوات، حينما بلغت سنه العاشرة، وصارت له في العفاريت عقيدة جديدة.

• • •

كانت هذه الطاحونة إحدى طواحين كثيرة عتيقة في القرية ... وهي طواحين غير آلية ولا بخارية. بقية من الطواحين الساذجة التي يديرها الحيوان، وتطحن في اليوم كله إردباً من الذرة أو نصف إردب من القمح.

وكانت هذه الطواحين منتشرة في القرية قبل مولد الطفل، وعليها الاعتماد في طحن الحبوب للسكان، وكان البقر هو الذي يستخدم فيها غالباً، وإن لم يمتنع استخدام الجمل والحمار في بعض الأحيان.

وكانت بطبيعة الحال شاقة مرهقة للحيوان وللإنسان، وبطيئة الحركة وذات صوت مزعج. ومظلمة غالباً ...

وقد انقرضت في الأيام الأخيرة، وبطل العمل فيها، حينما أنشئت في القرية طاحونتان آليتان بالبخار ... ولكن بعض أهل القرية ظل يرى في هذه الآلات الحديثة مفسدة للدقيق، وقلة بركة، وعز عليه أن يغير مألوف حياته، فبقي القليل من هذه الطواحين يدار، ومن بينه هذه الطاحونة «المسكونة» أي التي تسكنها العفاريت !

وبقي بناء هذه الطواحين الخربة المعطلة، وزاد خرابها وتعطلها في وحشة منظرها، وبخاصة في الليل، حين يسود الظلام في غير الليالي القمرية المعدودة. فاستقر في الأذهان أنها «مسكونة» بل مسكونة بشر العفاريت التي تعمر القرية، وتتوزع في بعض البيوت المهجورة، والمنحنيات المظلمة، والجهات النائية. والمراحيض على وجه الخصوص.

كان كل شيء في القرية يوحي بأسطورة العفاريت :

الظلام الذي يخيم عليها بعد الغروب، فتصبح شوارعها مظلمة حالكة، لا يرى السائر فيها مواضع قدميه، ولا يأمن أن يصطدم في كل خطوة بمجهول.

والطرقات المتعرجة كسار الثعبان، بحيث لا يدري السالك ما وراء كل ثنية وكل منعرج، إن كان أمناً وسلاماً، أم شراً وحرباً فهو أمام كل ثنية يتوقع مجهولاً غير مأمون.

والخيال القروي الساذج الذي يفسر الظواهر والحركات

حسبما استقر فيه من الصور المخوفة والأشباح المجهولة، في حلكة الظلام ...

ثم الأولياء، وما يشيع عنهم أتباعهم من الكرامات ــ ومن بينها القدرة على حرق العفاريت وتقييدهم، والحوادث التي يذكرونها عنهم في ذلك ــ فتختلط أسطورة العفاريت بأساطير الولاية، حيث تلتقي في مجاهل النفس الساذجة بموروثات الأجيال حول الخوارق والمعجزات، وقوى الخير والشر في الكون والحياة.

على أية حال لقد كانت «العفاريت» شخوصاً ماثلة في كل ذهن، مذكورة على كل لسان، يحسب لها حساب في خطوات الناس وفي حركاتهم بالليل والنهار.

إذا سقط طفل على الأرض، بادرت إليه أمه أو من يكون حاضراً سقطته، ليسمي عليه باسم الله، ثم ليقول له: «وقعت على أختك أحسن منك» إن كان ذكراً، أو «وقعت على أخيك أحسن منك» إن كانت أنثى ... وذلك تملقاً واسترضاء للعفريتة الصغيرة أو العفريت الذي سقط عليه الطفل أو الطفلة. فقد كان مقرراً أن كل امرأة لها «قرينة» من الجن. وكلما ولدت الإنسية ذكراً ولدت الجنية أنثى. والعكس بالعكس. فإذا سقط الطفل سقط على نظيره ــ وحينئذ لا بد من تملق هذا النظير الجنيّ وأمه، بذلك القول: «وقعت على أخيك أحسن منك» كي لا يؤذيه أو لا تؤذيه، وذلك مع التسمية باسم الله إن كان مسلماً، أو باسم العذراء

الطاهرة والصليب العظيم إن كان مسيحياً . ثم المبادرة برش المكان بالماء والملح ، الذي يزعمون أنه يحسم الشر بين بني آدم و « إخواننا » الذين لا يذكرون !

ومع أن منطق الأسطورة يقضي بأن يكون لكل آدمي قرين مغاير له في الجنس، إلا أن هذا لا يراعى، إذ تزدوج الأسطورة فيصبح لكل امرأة قرينة كذلك تلد مثلها وتقابل الذكر بالأنثى ! !

ويقع في بعض الأحيان أن يكون الطفل الإنسي الذكر جميلاً فتغار القرينة الجنية لأنها ولدت أنثى ، وتزداد غيرتها لجمال ابن قرينتها الإنسية، وعندئذ تخنق الطفل في ليلة الأسبوع !

ولقد خنقت أخاً شقيقاً للطفل في ليلة الأسبوع !

كانت أمه تتطلع أن تأتي له بشقيق يسنده ويؤاخيه، وكان هو يلتقط هذه الأمنية فيتمناها، وإن لم يكن لها في نفسه معنى حقيقي ثم سمع الله دعاء الأم ودعاء صديقاتها وحقق نبوءة « الشيخ بكر » الذي زارته إحداهن مستفسرة عما تحمل صديقتها، فسلمها عوداً من القصب . وكان هذا رمزاً لأن ما تستفسر عنه ولد ذكر !

وولد طفلا نامياً جميل الطلعة، فزاد ذلك في سرور الأسرة كلها، وأكمد كثيراً من خصومها الذين لا يودون لها الخير والنمو. وبينما العائلة تحضّر ليوم الأسبوع ، وتستعد لإقامة « مولد » ينشد فيه بعض المطربين الأناشيد، ويتلو فيه بعض القراء القرآن،

وتوزع «حلاوة السبوع» على الأهل والجيران، وتوزع الأطعمة على الفقراء... بينما هذا كله يمضي في طريقه كان الطفل المولود، قد بدأت تبدو عليه أعراض غريبة ابتداء من اليوم السادس. وشيئاً فشيئاً استحالت هذه الأعراض نوبات عصبية، يختنق فيها الطفل، ويرغي ويزبد، وتربد سحنته وتسود، ويبدو أنه يعاني ألماً لا يطاق... ثم تهدأ النوبة فيهدأ ويروق... حتى تعاوده من جديد.

إنها القرينة ولا شك. غاظها جمال الولد ونموه، وهاجها الحسد الذي انطلق حول العائلة، فأخذت في خنق الوليد!

واتجهت الأنظار إلى أولياء الله. ومع أن والده لم يكن يعتقد في معظم هؤلاء الأولياء ولا في القرينة، إلا أن الضعف الذي يحس به الإنسان أمام الخطر ـ ولا سيما الخطر على الحياة ـ ورغبته في أن يعيش له هذا الوليد، وفي ألا يحتمل تبعة موته أمام أمه إذا مات.

كل هذه العوامل ـ مع ما رسب في نفسه من الأساطير التي لا يمحوها التعقل ـ قد جعلته يوافق على سلوك هذا الطريق.

ولما كانت الأم تعاني آلام الوضع، التي يضاعفها موقف الوليد، والخطر الذي يتهدد حياته بلا أمل كبير، فقد تولت خالته حمله، لتطوف به على الأولياء: الأحياء منهم والأموات، علهم يستنقذون حياته المهددة من القرينة الثائرة، التي ما تفتأ تخنقه حتى يشارف الموت، ثم تدعه لحظة ببركة التمائم والتعاويذ والرقي فيهدأ ويروق!

ولكن وقع حادث جعل الأمل في شفائه ينهار، وكاد يودي بحياة خالته أيضاً :

كانت الليلة قمراء، وكانت المسافة بين دارها ودار أختها ــ أم الوليد ــ قصيرة. فخطر لها وهي ذاهبة بالطفل إلى بيت وليّ في جنح الليل، أن تمر بدارها لتستصحب منه خالتها هي. وكانت سيدة «مبروكة» قريبة من نفس هذا الولي الذي تقصده. وكان بيتها في «حارة» متعرجة عميقة، في وسطها بئر ذات حوض تستقي منه الحيوانات، وبجانبها نخلة في أحد البيوت.

ولما كانت الليلة قمراء، وكل جرم يخلع بجانبه ظلا، فقد كان ظل النخلة المتمايل بالهواء ينعكس على الأرض المقمرة، ويتحرك فيطول ويقصر حسبما تميل النخلة. ولا بد أن حالة ذعر خاصة كانت تستولي على شعور هذه الخالة، التي تحمل على كتفها طفلاً تتابعه قرينة جنية وتهم بخنقه ليموت. وهي وحيدة. والليل قد تأخر ... كل هذا هيأ لها أن هناك شبحاً هائلا يطول ويقصر، ويتمايل يميناً وشمالا، أما جريد النخلة، فقد بدا في الظل «كرابيج» هائلة يحركها ذلك الشبح في يده، ويكاد يهوي بها عليها!

وكان هذا كافياً لأن تفقد تماسكها، ولكنها استجمعت كل ما فيها من قوة، وأخذت تجري جرية الخائف، وصلت حتى إلى باب المنزل فطرقته طرقاً عنيفاً مخيفاً أيقظ النائمين فيه، ثم سقطت على عتبته ممسكة بيديها الوليد وهي ذاهلة كالأموات!

ثم أفاقت واستطاعت أن تذهب مع خالتها ورجل من أهل

بيتها إلى بيت الولي، أولا من أجل الوليد، وثانياً من أجل نفسها فأبى الوليّ أن يستقبلهم . وكان ذلك إيذاناً بفشل المهمة، وبنفاذ القضاء !

وفي اليوم السابع كان الوليد قد لفظ أنفاسه الأخيرة في نوبة من هذه النوبات الحادة ... كان «التيتانوس» قد قضى عليه، لأن «القابلة» — المولدة — لم تعقم السكين التي قطعت بها الحبل السري، وميكروب التيتانوس عالق بها، فتسمم الجرح، وبقي حتى استكمل مدة الحضانة، وهي تراوح بين أربعة وستة أيام .

وبذلك أتمت القرينة مهمتها وشفت غيظها من الوليد الجميل ! !

ومنذ هذا اليوم لبس الطفل تميمة جلبتها معها «مغربية غجرية» ! وهي تميمة نادرة، لأنها صورة من عهد سيدنا سليمان على إبليس وأبنائه جميعاً، وعلى «القرينة» وبناتها جميعاً، بألا ينال الأذى من يحملها .. ولقد ظل يحملها حتى تجددت له عقيدة أخرى في العفاريت بحكم ثقافته في المدرسة، فتخلص من التميمة، التي بقيت حتى حقق الله رجاء الأم بوليد جديد ... فألبسها منذ أول يوم، وبذلك لم تستطع «القرينة» أن تمسه بسوء فعاش ... وتخرج في الجامعة . ولا أدري ما رأيه اليوم في تميمته التي أنقذت حياته، فإني لا أجدها من بين محفوظاته في هذه الأيام !

* * *

فأما كيف جدّت له في العفاريت عقيدة جديدة، تخالف عقائد أهل القرية جميعاً... فلذلك قصة :

كانت تصب في أذنه ووعيه عشرات القصص والصور عن العفاريت . ففي هذه الطاحونة عفريت يبدو في صورة قط أسود، ولن ينجو من يمسه بحال . والحادث الذي وقع لرفيقه جمعة أصدق برهان على ما يقال .

وفي بعض الطواحين الأخرى عفريت يدير الطاحونة بالليل حيث لا يكون فيها أحد، فيسمع المار صوت دورانها، وفرقعة السوط الذي يلهب به السائق ظهر الثور، وصوته «حاه . حاه» !

وفي بعض المواضع تظهر «المُزَيّرة» وهي عفريتة في شكل إمرأة طويلة ترتدي «التزييرة» وهي لباس أسود خاص فوقه حبرة «مجنترة» أي مصبوغة منشّاة، فيسمع لها حفيف عند الحركة وتمسك بيدها شعلة تحرق بها من تراه .

وعند البئر المهجورة في وسط القرية تظهر امرأة منتكثة الشعر، بيدها مكنسة تكنس بها في حلقة دائرة حول البئر، والويل لمن يقترب منها بعد العشاء .

وفي منحنى مظلم في إحدى الطرق، شوهدت امرأة تمشي وهي جالسة القرفصاء، وكأنما تبحث عن شيء في عرض الطريق .

وللنيل كذلك جنيّاته . فالنيل حين يفيض ويغمر الأرض

يحفل بالجنيات التي تتراءى للشبان خاصة عندما يسبحون في اللجة، ثم تخطفهن وتختفي بهن في الماء ...

ثم ذلك العفريت التقليدي الذي يتبدى في طرقات المزارع في صورة خروف سمين لا راعي له ولا صاحب، مما يطمع الذي يراه فيه ؛ فيقوده إلى داره ؛ حتى إذا صار قريباً منها إذا بالخروف يلتفت إليه قائلا: أرجعني إلى حيث أخذتني ؛ أو يكبر ويتضخم وهو يردد هذه الكلمات، أو ينقلب طفلا صغيراً يردد هذا المطلب... وعندئذ يدرك الرجل المسكين أنه أمام عفريت. فإما أن يلهمه الله أن يقرأ شيئاً من القرآن : الصمدية أو آية الكرسي. وعندئذ يحترق العفريت. فأما إذا كان يعرف اسم الله الأعظم ــ الذي لا يعرفه إلا الخواص القليلون ولا يبوحون به لأحد إلا بإذن خاص ! ــ فإن مجرد ذكره يقيد العفريت ويسمره في الأرض مكانه، ويجعله خاضعاً ذليلا خائفاً من طلوع النهار عليه، فيأخذ في استعطاف حامل الاسم الأعظم حتى يرق فيسمح له بالانصراف... فإذا لم يكن هذا ولا ذلك، فالويل كل الويل لذلك الذي اقتاد الخروف !

ومثل الخروف التقليدي ذلك الحمار الذي يجده بعضهم في طريق من طرق الحقول، وعليه برذعته وفي فمه لجامه، وهو حمار فاره يغري بالركوب، فيركبه من جازت عليه الحيلة الشيطانية ... ثم يتكرر دور الخروف، مع زيادة أن الحمار يرتفع براكبه ويرتفع ، وهو فوقه يستغيث، ثم «ينكته» في الأرض إن لم يكن يعرف اسم الله الأعظم، أو إذا كان يجهل القرآن، أو لا يذكر

شيئا منه في هذا المقام، فينزل إلى سابع أرض! أو ينزل مهشماً على كل حال!

وفي كل مكان عفاريت؛ وكل ما يدب على الأرض في الليل، أو يتراءى شبحه في القمراء، فهو عفريت سارب يترصد المارة، وهم دائماً في فزع، حيثما ساروا، حتى لتبلغ الجرأة ببعض العفاريت أن يتراءوا بالنهار في صورة القطط السود. لذلك يمتنع ضرب القط الأسود نهاراً، وسائر القطط ليلا، لأن كل قط بالليل هو مظنة أن يكون عفريتاً، أو أن يكون روحاً لبعض الناس الذين تسرح أرواحهم!

ولسرحان الأرواح هذا قصة لا تقل شيوعاً عن قصة العفاريت:

فبعض الأطفال – وبخاصة التوائم – تسرح أرواحهم إذا ناموا، أي إنها تفارق الجسد، وتتراءى غالباً أو دائماً في صورة قط، فإذا حبس هذا القط لسبب ما، بقي الطفل صاحب الروح نائماً لا يستيقظ، أما إذا ضرب فإن الطفل يمرض ويحس الألم في الموضع المقابل في جسمه للموضع المضروب في القط، ويموت نهائياً إذا قتل هذا القط حامل الروح!

لهذا – ولمظنة أن يكون القط عفريتاً – يحرم ضرب القطط ليلا، ويحذر منه نهاراً.

ومثل القط في تمثيل الروح ذبابة خضراء تشبه النحلة الصغيرة، وهذه يعتقد الناس أنها روح، ولكنها من أرواح الموتى تطوف

بالديار، حول الأهل والأصحاب، فتثير في نفوسهم حنيناً وأنساً، ويحرم بطبيعة الحال مسها أو طردها عن الدار ! (١)

أما الجرأة الشيطانية العجيبة، فتلك التي تتجلى في اقتحام بعض العفاريت لبعض المساجد. ولكنها - على جرأتها - لا تدخل المصلي إنما توجد في دورات المياه. ولقد حدث «لعمي الشيخ علي» - وهو رجل من أصحاب الطريق - يرسل ذقنه من الأمام وعذبة عمامته من الخلف - حدث أن قام من نومه مبكراً على صوت ديك مبكر في الصباح، فذهب إلى المسجد وهو يحسب الفجر قد حان، بينما لم يكن قد مضى بعد نصف الليل كثير. وهناك أراد أن يتوضأ وفتح الصنبور، وإذا به يساقط على يده - لا ماء - ولكن لحماً طرياً يسيل على يديه، ثم يتشكل بينهما طفلا سويّا !

ولما كان الرجل يحمل اسم الله الأعظم، وهو مطمئن إلى نفسه وعلى نفسه من العفاريت، فقد صبر على هذا المزاح الثقيل قائلا للعفريت : اذهب يسهل الله لك، وانتقل إلى صنبور آخر، وثالث ورابع والفصل يتكرر، وعندئذ تلا اسم الله الأعظم، فصرخ العفريت صرخة مدوية، وقال له : إنما أنا طفل صغير، فأطلقني يا سيدي ... فأدركت الشيخ الشفقة، وهش للطفل العفريت، وأطلقه لوجه الله !

وكثير من الأطفال يبدلون. وذلك أن ينفرد طفل صغير في

---

(١) للعقائد المصرية القديمة أثرها في هاتين الخرافتين.

مكان مخيف كالمراحيض . وعندئذ تطلع العفاريت فتخطف الطفل الآدمي وتضع مكانه طفلا جنياً . ولا ترد الطفل إلا بعد إجراءات طويلة، منها أن يغطس في النيل ويقال : «خذوا ولدكم وهاتوا ولدنا» فيتمّ التبادل !

شهر واحد كامل، كان الناس يستريحون فيه من العفاريت، ومن الفزع الدائم الذي يلاحقهم في غدوهم ورواحهم، فينطلق الناس والأطفال آمنين يتزاورون في البيوت، ويتأخرون في السهر بلا خوف، ويلعبون في الطرقات وأطراف الحقول، وتقوم النساء في جوف الليل لقضاء الحاجات، وللعجن بوجه خاص، حتّى يصبح العجين مهيأ للخبز عند الفجر ... هذا هو شهر رمضان الذي تقيّد فيه العفاريت جميعاً، صغاراً وكباراً، فلا تتراءى للآدميين ... وذلك منذ عهد سليمان عليه السلام ! .

• • •

عشرات من هذه الصور وهذه الأساطير وهذه الحوادث كانت تصب في ذهنه الصغير، فكيف أمكن أن تجدّ له عقيدة جديدة في العفاريت ؟

كان ذلك حينما وجد بالمدرسة ناظر شاب، شديد العناية بتربية التلاميذ الخلقية والروحية، وعدم الوقوف بهم عند حدود المعلومات المدرسية الجافة ... وحين رأى أسطورة العفاريت هذه تحتل

مكاناً أصيلاً في أحاسيس التلاميذ وشعورهم، أخذ يحاول ما استطاع أن ينقي منها أذهانهم.

قال لهم: إن كل حديث عن هذه العفاريت خرافة أساسها الجهل، وإن كل القصص التي تروى لهم عمن صادفوا العفاريت إنما هي قصص مكذوبة لبعض الأغراض، أو متوهمة في أحيان كثيرة. وما القطط والكلاب والحيوانات، التي يظن الكثيرون أنها عفاريت، إلا حيوانات حقيقية، ولكن الخوف والرعب هما اللذان يجعلان الناس يظنون بها الظنون، ولاسيما حين يلقونها في الظلام، حيث لا تتبين لهم الأشباح...

وجعل هذا الموضوع مادة لأحاديثه في كثير من الحصص حتى كاد يؤمن بها بعض التلاميذ.

كان صاحبنا يثق بهذا الناظر ويحبه، ويصدقه ويتأثر به... ولكن العفاريت... ! هذه أعمق في شعوره من أن تمحوها هذه العوامل جميعاً، وإن هزت أركانها في نفسه هزاً. وكانت واقعة عملية أو عدة وقائع تكفي لانهيارها في حسه، وقيام عقيدة جديدة مكانها. وشاءت الظروف أن تيسر له هذه الوقائع التجريبية على يدي هذا الأستاذ أيضاً.

قال له بعض التلاميذ: إن هناك عفاريت تظهر بصورة الأرانب في «الدرب الضيق» بعد منتصف الليل. وهذا الدرب الضيق كانت شهرته بالعفاريت تعادل شهرة الطواحين المسكونة أو تزيد.

وأصل هذا الدرب أنه منزل قائم في وسط القرية بين طريقين، فشاء صاحبه أن يستغني عنه، وأن يفتحه من الجانبين ليوصل الطريقين، ويوفر على المارة مسافات كبيرة كانوا يضطرون لقطعها كي يلفوا من الشوارع الخارجية البعيدة.

فتح منفذان في البيت فحسب، وبقيت سقوفه وعرصاته مظلمة -حتى في النهار- ومن هنا سكنته العفاريت، وأصبحت مصدر رعب للسالكين فيه، حتى لقد كان بعض الرجال يتهيب اجتيازه منفرداً بالنهار بَلْه الأطفال. أما في الليل فمقياس الشجاعة الكبرى أن يمر به أحد منفرداً، وقلما كان أحد يقدم على قبول هذه المغامرة الفظيعة!

فلما قيل لهذا الأستاذ: إن العفاريت تظهر بعد منتصف الليل في هذا الدرب، انتهزها فرصة، وطلب من بعض التلاميذ أن يرافقوه ليلاً بعد الميعاد المقرر لرؤية هذه الأرانب، ولإمساك واحد منها والفحص عنه!

وهنا تردد التلاميذ بين الخوف وحب الاستطلاع، وشجعهم وجود الناظر الذي يثقون بقدرته على كل شيء، وحفظهم لآيات القرآن الواقية في مثل هذه المخاطر... شجعهم هذا كله على تغليب حب الاستطلاع، وقبل ستة منهم أن يقوموا بالتجربة الخطرة، وكان هو واحداً منهم بطبيعة الحال.

وقبل الموعد المحدد اجتمعوا في المدرسة ليقوموا منها بالحملة الأولى من نوعها في القرية، حتى إذا وافى الموعد، وانقطعت

الرجل من الطرقات إلاّ الخفراء، انطلقت الحملة العجيبة إلى الدرب الضيق مكمن العفاريت المرهوب .

وحينما اقتربوا منه بدأت مفاصلهم تسيب ، وأخذت قلوبهم ترجف ، وبحث كل منهم عن آية الكرسي والصمدية يتحصن بهما ويتقوى، وانطلقت العبارات المطمئنة من الناظر . وإن لم تصل في حقيقة الأمر إلى قلوبهم ... ثم اقتحمت الحملة الفخ يتقدمهم الناظر، وهنا كادت التجربة تخيب، وتأتي بعكس المقصود منها على خط مستقيم .

لقد استقبل التلاميذ عيوناً كثيرة، حمراء، وزرقاء، تتوهج في الظلام ... عيون العفاريت من غير شك، وهي «تطق شراراً» كما سمعوا من الكثيرين، وهذه هي العفاريت الأرانب، تقفز وتثب، وتجري من هنا ومن هناك، وتمر من بين أقدامهم، وتتخايل لهم عن الأيمان والشمائل .

واضطرب شمل الجمع ، وفقدوا كل رصيد من العزيمة والتماسك وندت آيات القرآن الواقية عن ذاكراتهم ، فلم يعودوا يجدونها ــ وهذا هو الخطر الأكبر الذي يواجهه من يواجهون العفاريت . إذ يفقدون في معمعات المعركة سلاحهم الوحيد ! .

ولم يستغرق هذا كله إلا لحظة سمعوا فيها صيحات الناظر يقول : .

هذه أرانب حقيقية لا تخافوا . أرانب لأصحاب البيوت

المجاورة . اقبضوا على واحد منها لنفحصه . اقبضوا عليه لا تخافوا، حلقوا عليها لنمسكها .

وعاد إلى قلوبهم شيء من الثقة المزعزعة، وقد تمكن الناظر من القبض على أرنب منها، فأعلن انتهاء الحملة بالفوز ، وأعلن عزمه على أن ينسحبوا إلى قواعدهم سالمين غانمين.

وعبثاً حاول أن يشجع أحد التلاميذ على الإمساك هنيهة بالأرنب ... ومن ذا الذي جنّ منهم حتى يقبض بيده على العفريت ؟ وهكذا عادوا إلى المدرسة، وهم في كل خطوة يرتقبون أن ينطق العفريت، ويناديهم أن يعيدوه إلى مكانه، وإلا فالويل لهم أجمعين، أو ينقلب في يدي الناظر قطاً أو كلباً أو هواء، يفلت من بين يديه دون شعور ! .

ولكن العفريت لم يغير صورة الأرنب، ولم ينبس ببنت شفة. وها هم أولاء قد عادوا إلى المدرسة ... فأخذ الاطمئنان يتسرب الى قلوبهم . من يدري ؟ ربما كان الناظر محقاً فيمـــا يقـول ! .

محق أو غير محق، ولكنهم على أية حال لن يقبلوا أن يبيت عند أحدهم إلى الصباح، كما يقترح الناظر ، فمن يدري أن العفريت يبدو هكذا هادئاً لأنهم جماعة، فإذا انفرد بأحدهم تعفرت له من جديد؟ ! .

واستقر الرأي على أن يبيت العفريت في المدرسة، وأن يحضروا

صباحاً ليروه . فإن وجدوه فهو أرنب ابن أرنب، وإن لم يجدوه، أو وجدوا مكانه حيواناً آخر، فهو عفريت ابن عفريت !

وصحت التجربة، وأصبح الصباح، فإذا هو أرنب أصيل، وأرسل الناظر فرّاش المدرسة يسأل أصحاب البيوت المجاورة للدرب الضيق عمن ضاعت له أرنب، فعاد ومعه ابن أحد السكان ليتسلم الأرنب الغائب . الذي تسلل من تحت الباب المرتفع عن الأرض وانساب في الدرب الضيق، كما يصنع كل ليلة مع إخواته الأرانب العفاريت ! .

كان للتجربة قيمتها ولا شك، ولكنها لم تكن حاسمة، ولم يكن بد من أن تتبعها تجربة أخرى على الأقل، قبل أن تتزعزع هذه العقيدة .

وقيل للناظر إن هناك امرأة محلولة الشعر، تظهر في بعض الليالي عند البئر المهجورة في وسط القرية، وتكنس الأرض وهي جالسة، تتحرك حول البئر حركة دائرية ...

فاتفق مع عدد من التلاميذ على أن يقبضوا كذلك على هذه العفريتة ! .

يا للجرأة ! ! ولكن لماذا لا يجربون، وقد عادوا من التجربة الأولى سالمين؟ .

لقد ذهبوا ليلة وليلة يطوفون بعد انقطاع الرجل بهذه البئر،

فلم يظفروا بالجنية المعهودة ... غير أنهم طفقوا يكررون التجربة حتى ظفروا بها ذات ليلة ... ولكن من ذا الذي يقدم على مواجهة الخطر في هذه المرة، وما في كل مرة تسلم الجرة ! .

إنه أستاذهم الجريء ... ولكن هاهوذا نفسه يتردد، فيكتفي بالاقتراب منها إلى حد. ومتى أدرك أنه بتردده واضطرابه يهدم كل ما بناه في نفوس التلاميذ، خاطر واقترب، وأسعفته علبة الثقاب في جيبه تنير له الطريق .

فماذا وجد ؟ .

إنها امرأة عجوز تقول له : «أف عليك، سيبني يا ولدي أكنس الطريق للباشا المدير» .

أي مدير ؟ وأي طريق ؟ ... إن في هذا الإبهام ما يثير المخاوف والشكوك ؟ ولكنهم يلمحون البيت الذي خرجت منه مفتوحاً، فيدركون كل شيء :

إنها عجوز خرفة معروفة في القرية . لا تزال تذكر زيارة الباشا المدير للقرية في سنة من السنوات، ولا يزال يخيل لها أنها تكنس الطريق للباشا المدير، فلقد استقرت في نفسها هذه الحادثة الفذة، التي ترج البلد رجا، إذ يكلف كل صاحب بيت أن يكنس أمام داره ويرشه، وإنه لحادث فريد رهيب ! .

* * *

أرانب الدرب الضيق، وامرأة البئر المهجورة، كلتاهما مع

تعاليم الأستاذ المحبوب، كان لها أثرها في الطفل، وكانت سنه قد بلغت العاشرة، وكاد يتم دراسته بالمدرسة، فأخذت أسطورة العفاريت تفقد شيئاً من قوتها في نفسه ... أخذت تتزعزع إلى الحد الذي يمكنه من إجراء التجارب بنفسه . وهذا تقدم عظيم .

كان يسير دائما وفي جيبه علبة الثقاب – ولو لم يكن يدخن – ولكنه رأى في العلبة إنقاذا في حادثة امرأة البئر، فتابع هذا التقليد المحمود، وحمل معه دائما هذا السلاح، وساعده على ذلك ما سمعه من أن العفاريت تخشى النور، ولا تقف لمن يثبت لها، ولا يرتجف فؤاده حينما يلقاها .

وكان يجتاز شوارع القرية بعد العشاء – فلقد أخذ يصلي في المساجد تشبها بالرجال – ومنذ أن بلغ العاشرة كان في وهمه قد صار رجلاً مسئولا ذا أهمية خاصة، فما يليق أن يترك الصلاة الجامعة مع الرجال ! – كما بدأ يسهر ويتأخر في السهر حتى ليصل في بعض الأحيان إلى الساعة العاشرة . أليس رجلا ؟ فلم لا يسهر كما يسهر الرجال ؟ .

وكان هذا يقتضيه أن يعود إلى الدار في الظلام، وأن يمر بمكامن العفاريت، وهي متناثرة في القرية، لا يخلو طريق منها من مكمن أو اثنين على الأقل ... وعندما كان يقرب من الفخ ترتجف مفاصله، وتسرع دقات قلبه، ولا يستطيع أن يجتازه، خوفا من أن يدعه «العفريت» يمر، ثم يتقفاه ! وعندئذ كان يؤثر أن يقترب من المكمن حتى يصبح فيه؛ ثم يوقد عود الثقاب، ويقف للفحص

عن كل جوانب المكان وزواياه، حتى لقد كان يضع عينه على ثقب المفتاح في باب الطاحونة أو سواها زيادة في التأكد ... فإذا استوثق أن لا شيء، سار في طريقه نصف مطمئن، حتى يقترب من مكمن آخر. وهكذا.

ولقد كان شأنه عجيباً في هذه الفترة، فهو يحاول ألا يؤمن بالعفاريت، وهو يتشجع على السير في الظلام، والاجتياز بمكامنها المرهوبة عند سواه ... ولكنه في الوقت ذاته يخشاها، فيقف للفحص عنها، موهماً نفسه أنه قد برئ من الأسطورة اللعينة !.

وعلم الناس أنه يجتاز هذه المخاطر، فأشفق بعضهم عليه، وأعجب بعضهم به، وزاده هذا الإعجاب إمعاناً في تجاربه، فلم يصادف بعد اليوم عفريتاً واحداً من العفاريت الكثيرة التي تأخذ على المارة طريقهم في كل مكان.

أقول: لم يصادف عفريتاً واحداً ... ولكن الحق أنه في ليلة ما كاد يفقد كل ثقته التي كونتها الحوادث والأيام.

كان قد بلغ الحادية عشرة، وكان مع أفراد عائلته مدعوين إلى عرس ابنة عمته. وكان مفروضاً أن يبقوا هنالك إلى نحو منتصف الليل ثم يعودوا. ولكن بدا أن والدته قد أفتقدت شيئاً من أشيائها نسيته في منزلهم وأرادت استحضاره، فتطوع هو في شهامة الرجال للقيام بهذه المأمورية !.

ولكنها لم تأمن أن يذهب وحده، فآذى هذا التخوف

كبرياءه، وأصر على أن يذهب ويعود. وكان هناك طريقان من منزل عمته لمنزلهم. أحدهما : طريق طويل يطوف بالقرية من أطرافها ؛ والآخر : طريق قصير، ولكنه يمر بالدرب الضيق، فحذرته أمه أن يمر بهذا الطريق القصير !

وكان هذا التحذير كافياً لأن يقتحم الطريق القصير في هذا الوقت المتأخر – والوقت يعد متأخراً في القرية بعد عودة المصلين من صلاة العشاء ! – وهنا يحس بالرهبة على مدخل الدرب، ولكنه مع ذلك يجتاز ... فيقع ما يثير الرهبة الكامنة وراء الشجاعة المصطنعة :

كان في ركن من أركان البيت – الذي هو الدرب الضيق – كومة من الآجر، فأحس عندما قرب منها أن هناك حركة تخلخلها فيسمع صوت لاصطدام القوالب ؛ ثم نظر فرأى وهجاً يوصوص بين فتحات الكومة الكبيرة ... عندئذ استل سلاحه وأوقد عود الثقاب، فعاد كل شيء ساكناً، واختفى الوهج الذي كان يوصوص له ... وانطفأ الثقاب، وإذا بالحركة الأولى تعود.

وكاد يفقد تماسكه عندما كرر العملية مرات، وفي كل مرة تتحد النتيجة. وتسمرت رجلاه في مكانهما فلم يعد يجرؤ على الخطو، ولا يغادر موقف الخطر، وطال الوقت، وأخذته حمى عنيفة في اشعال الثقاب حتى كاد ينفد، وهو لا يملك التقدم ولا التأخر، ولا يملك الكف عن إشعال الثقاب.

وأدركته عناية الله، فإذا بأحد المارة من الرجال، وقد راعه

النور والظلام المتناوبان، فأوجس خيفة، وتقدم في حذر حتى وقع نظره عند إشعال الثقاب على وجه آدمي، فصاح مذعورا : «إنس وإلا جن ؟» ووجد الطفل نفسه، فقال : أنا فلان ابن فلان!

واقترب منه الرجل، وهو في استغراب ودهشة، فأوقد هو عود الثقاب الأخير. وقال في إشفاق ظاهر : وما الذي جاء بك يا ابني هنا في هذا الوقت المتأخر ؟ لقد ستر الله عليك !

عندئذ عاودته شجاعته المصطنعة فقال : أنا لست خائفاً، فأنا لا أصدق ما يقال عن العفاريت . ولقد كنت واقفاً أبحث عن هذه العفاريت التي يقولون عنها ! ! ! .

وعلم فيما بعد أنها فئران تسكن كومة الآجر، وتشع عيونها في الظلام . ولكنها تسكن ويختفي وهج عيونها في نور الثقاب !

...

ومرت أيام، وغادر القرية كلها، وعاش في المدينة حياته واتسعت ثقافته، فعادت أسطورة العفاريت مثار تندره وفكاهته .

ولكن اسأل أحلامه اليوم ورؤاه ... إنها لتنبئك أن أسطورة العفاريت أعمق في نفسه من الثقافة . وأن العفاريت التي رافقت عقله في طفولته وصباه، ستظل ترافق خياله على مدى الحياة .



حركة ثقافية

تلك التي كانت تنبعث في القرية ثلاثة أيام أو أربعة في بعض أشهر السنة، وتمتاز عند جمهرة القراء فيها امتيازاً خاصاً، وتظل مذكورة حتى يحين الموسم كرة أخرى ...

تلك هي الأيام التي كان يصل فيها إلى القرية « عم صالح » حاملا على كتفه غرارة « زكيبة » حافلة بالكتب، فيجلس في سويقة القرية متربعا فوق الغرارة بعد إفراغها، ويرص أمامه هذه الكتب التي قد تبلغ العشرين والثلاثين صفوفا صفوفاً، حسب قيمتها، أو حسب موضوعاتها !

وحذار أيها القارىء أن يعلو شفتيك الابتسام وأنا أصف لك هذه « المكتبة » بأنها مرصوصة على الارض ... فإن محتوياتها لكفيلة بأن ترد إليها اعتبارها في نفسك ... وذلك متى علمت أنها كانت منوعة الموضوعات والاتجاهات .

فمن كتب « الشُعر » هكذا بضم الشين كما كنا ننطقها نحن الأطفال، وكما كان ينطقها المثقفون من رجال القرية أيضا تمييزاً لها عن الشّعر الذي نأخذه في المحفوظات، والذي هو من خصائص العرب القدامى، كما أخذنا في صفات العرب ـ من كتب الشعر تلك تجد قصص أبي زيد، وهي كثيرة ومتنوعة ـ وقصص الزير سالم وكليب ، وقصص الزناتي خليفة ودياب بن غانم ...

ومن كتب المدائح والسير: تجد البردة، وسيدي ابراهيم الدسوقي، والسيد البدوي مع بنت برّي، وسيدي عبد القادر الجيلاني. وسعد اليتيم وإعلام الناس فيما جرى للبرامكة مع بني العباس ...

ومن كتب البطولة، تجد كتب الأميرة ذات الهمة، وسيدي محمد البطال، والملكة حنّه ...

ومن الكتب الدينية تجد دلائل الخيرات، ودعاء نصف شعبان، ودعاء ليلة القدر ...

ومن الكتب البوليسية: شرلوك هولمز، وسنكلر، واللص الشريف ...

ومن كتب الثقافة العامة: تجد كتب التحلية والترغيب في التربية والتهذيب والفوائد الفكرية. كما قد تجد الجزء الأول من كتاب النحو للمرحوم حمزة فتح الله! أو بدائع الزهور في وقائع الدهور.

ثم يحدث في بعض الأحيان أن تحتوي غرارة «عم صالح» على ما هو أخطر من ذلك كله: يقع أن يحمل في بعض الأحيان نسخة من كتاب عنترة الفوارس، أو ألف ليلة وليلة، أو ... وهنا لا بد أن تقرأ هذا الكلام همساً في سرك — كتاب أبي معشر الفلكي في التنجيم، وكتاب شمهورش في السحر، وكتاب الفرائد الطبية في الطب ... وهذه الطائفة الأخيرة من الكتب لا يكشف عنها «عم صالح» إلا للخواص من زبائنه وقرائه، ولا

يسلمها لهم إلا بعد أن يأخذ عليهم عهد الله ألا يستخدموها في مضرة الناس ... لذلك كان لها جو سحري خاص، يتم فيه التبادل ، كما يتم توقيع أخطر المعاهدات السرية ...

* * *

كان صاحبنا زبوناً ممتازاً عند «عم صالح» يعرفه جيداً، ويحتفظ له بأجود الكتب، وأكثرها خطراً، فما كان صاحبنا ليبخل على الكتب بالمال، مهما ارتفع السعر، حتى ولو بلغ ثمن الصفقة الواحدة خمسة قروش !

وهذه الكتب القيمة كانت أسعارها تبدأ من المليم حتى تنتهي إلى القرشين، وقلما تجاوزت هذا الحد الأعلى إلا في الطائفة الأخيرة من الكتب السرية الخطيرة !

وكانت الأيام الثلاثة أو الأربعة التي يهبط فيها «عم صالح» إلى القرية هي أجمل الأيام عند صاحبنا... كان يستعد لها بما حوشه من نفقاته، فإذا نفد الرصيد استعان بوالده فطلب منه القرش والقرشين والخمسة في بعض الأحيان... وإنه لمبلغ جسيم في ذلك الحين . فسنه لم تكن تتجاوز العاشرة، وهو في القرية لا يجد ما ينفق فيه مصاريفه القليلة التي يتسلمها من أبيه، إذ كانت جميع حاجاته من الفاكهة والحلوى مكفية، اللهم إلا إذا شاء أن يشتري القصب من «عم خليل»، فقد كان محظوراً عليه أن يشتري البلح الرديء والتفاح الفج، ما دام والده يستحضر حاجة المنزل من أجود ما يعرض في القرية . ثم إنه لا يسرق شيئاً من الجرن ولا من المنزل، تلك السرقات المعترف بها في البيوت الأخرى كما سيجيء !

خمسة قروش إذن ليست بالمبلغ المين في ذلك الحين، ومع هذا فهو يدفعها كلها ثمناً لصفقة من صفقات الكتب، فلا عجب إذا عدّه «عم صالح» من زبائنه الأعزاء!

وكان له أصدقاء ـ قراء مثله ـ من زبائن «عم صالح»، بعضهم من تلاميذ المدرسة وبعضهم من الشبان الذين تخرجوا فيها، أو أخرجوا منها حينما طرت شواربهم، واسترسلت ذقونهم، وصاروا في عداد الرجال.

فهؤلاء معه كانوا جيرة «عم صالح» طوال الأيام الثلاثة الناشطة، يشترون منه ما تسمح لهم ميزانياتهم بشرائه، ويقرأون نظير مليم عن الكتاب ما يعن لهم من الكتب الأخرى على أن تكون الاستعارة داخلية ـ أي بجوار عم صالح في سويقة القرية ـ اللهم إلا صاحبنا هذا فقد كان يسمح له باستعارة خارجية نظير إيداع نصف قرش عن الكتاب ... ثم يرده إذا لم يكن ينوي اقتناءه، أو إذا عجزت ميزانيته عن المزيد من الشراء، وفي هذه الحالة يوصي «عم صالح» أن يحتفظ له بهذا الكتاب حتى يعود، فيكون قد أعدّ له ثمنه الهائل... فيعد الرجل، والحق إنه كان يفي دائماً بالميعاد!

ولم تكن هذه الحركة الثقافية لتنقطع بعد رحيل «عم صالح»، فهذه الكتب التي اشتراها القراء، كانت تظل تتبادل بينهم فترة أخرى، حتى تتم قراءتها للجميع، وعندئذ يكون الموسم التالي قد اقترب، فيأخذون في انتظاره... وهكذا على مدار العام!

• • •

اشتهر صاحبنا بالكتب وبالقراءة في أوساط المثقفين بالقرية، فارتفع في أعينهم درجات، وأخذ الجميع يتنبئون له بالمستقبل الزاهر... ماذا؟ أليس على صغره يقتني مكتبة ضخمة يبلغ من ضخامتها أن تملأ صفيحة كاملة؟

نعم صفيحة. فقد اختار لها هذا النوع من الصيانة بوصاية «عم صالح»، الذي قال له إن الخشب «يربي» العث والصراصير. أما الصفيح فلا. إذ يسهل بين الحين والحين مسحه بزيت البترول، حيث لا يقربه العث ولا الصراصير... ولما كان حريصاً على كتبه، فقد أعد لها هذا الصندوق من الصفيح، وجعل له غطاء محكماً، صنعه له «السمكري» من الصفيح أيضاً، وبذلك صينت المكتبة التي ظلت تتضخم وتتضخم، حتى وصلت في بعض الأحيان إلى خمسة وعشرين كتاباً!

الحق إنه كان عاشقاً لهذه المكتبة الفريدة من نوعها في القرية، بما تحويه من شتى ألوان الثقافة. فما كان ينقصها لتصير مكتبة جامعة إلا أن تكون فيها نسخة من «البخاري».

ولكن من أين له بنسخة البخاري وهو طفل: وهذه لا يقتنيها إلا رجال الأزهر ـ وكانوا نحو العشرة في القرية (١) ـ ولهم فيها مقام ملحوظ واحترام كبير. فأيديهم تقبل من الجميع، كما لو كانوا

---

(١) كان هذا قبل ربع قرن. أما اليوم فعمرت القرية بعدد يتجاوز المائة ممن تعلموا تعليماً عالياً ومتوسطاً وفي مدارس المعلمين.

أولياء . والحق إنه لم يكن يعلو على مقام العلماء في القرية إلا مقام المجاذيب والأولياء !

عند هؤلاء كان يوجد كتاب البخاري ... وعند رجلين آخرين في القرية : خطيبين أي قارئين للقرآن ... ولكنهما يتعاطيان مع هذا صناعة الرقي والتمائم والتعاويذ ... والسحر أيضاً ... فالطفل المريض، والمرأة الممسوسة، والزوجة المكروهة، والرجل المربوط (أي الذي يسحر له ليلة زفافه فتسلب رجولته حتى يفك الرباط !)، كل هؤلاء كانوا يجدون عند هذين الرجلين وعند سواهما الكثيرين من مزاولي «الكتابة» – أي كتابة السحر – ما يطلبونه من رغبات في نظير الأجر المعلوم .

إلا أن هذين الرجلين كانا يمتازان بأن كلا منهما يملك نسخة من «البخاري» التي لا يملكها إلا علماء الأزهر القادمون من القاهرة .

أما لماذا كان لنسخة البخاري هذه القيمة فإليك البيان :

تقع في كثير من الأحيان سرقات في البيوت، يكون أبطالها إما ربة الدار أو زوجة الابن وإما أحد الأبناء، وإما واحد أو واحدة من الخدم في بيوت الأثرياء . وهي غالباً من الغلة المخزونة في الدار أو الجرن أو قطعة ذهبية أو نقود .

وأن يسرق الخدم من البيت هذا أمر معروف، أما لماذا يسرق الأبناء أو زوجة الابن، أو زوجة صاحب الدار، فتفسير ذلك راجع إلى الحالة الاقتصادية التي تجعل المصروفات اليومية

للأبناء أمراً غير معترف به حتى ولو كبروا وتزوجوا ــ وهم يزوجون طبعاً عن طريق الآباء والأمهات، ويظل الآباء يكفلونهم وزوجاتهم سنوات طويلة حتى يموت الوالد فيرث الأبناء !

فإذا كبر الولد وبلغ مبلغ الشباب، لم تكن له مندوحة عن السرقة، لأنه لا بد أن ينفق شيئاً في مجامع الشبان أمثاله : يشاركهم في شراء القصب حيث يمصونه جماعات ويشاركهم في الشاي، حيث يستحضرونه هو والسكر بالتناوب، ويشاركهم في اللحوم والكلاوي والكبد، التي يشترونها معاً ويأكلونها خفية في الحقل أو في بيت أحدهم، لأن الكمية التي يحصلون عليها في وسط العائلة لا تكفي لنموهم في هذه المرحلة.

لا بد إذن أن يسرق هؤلاء لهذه الأسباب ولغيرها، كأن يكون أحدهم قد خُطب له ليتزوج، ولا بد له من هدايا يقدمها لخطيبته وأهلها ــ زيادة على الهدايا التي يقدمها أهله وهي غالباً قليلة ... لا بد له أن يحمل إليها منديلاً «بأويه» أي «مشغولا» مزخرفاً، أو رطلين من العنب، أو ربع كيلة من البلح، أو «لبشة» قصب ــ وهي حزمة عددها أربعة وعشرون عوداً ــ ... إلى آخر هذه الهدايا التي لا بد لها من ثمن، والتي لا يجد الشاب ثمنها إلا أن يسرق شيئاً من بيت أبيه في طور الخطوبة، وفي شهر العسل كذلك، إذ يحضر لزوجته سراً وبعيداً عن علم أمه وأبيه كميات من «المكسرات» أي الجوز والبندق واللوز وشيئاً من الحلوى و «الملبن» وكمية من الصابون ليستحما بنسبة عالية، لا تنهض بها الكميات المعتادة في منازل القرية ...

وتسرق زوجة الابن هي الأخرى، لأنها شابة، لها مطالب غير مطالب الدار المقتّر فيها غالباً... تلزم لها كمية من المناديل المشغولة والصابون «الممسك» أي ذي الرائحة وزجاجات الروائح تتطيب بها لزوجها الشاب، والأمشاط المصنوعة من العظم – والتي تسميها عاجاً – تلك التي تحملها «الدلالة» وتدخل بها إلى البيوت فتبهر النسوة والشابات بوجه خاص – ولا سيما في الفترة الأولى من الزواج.

وتسرق لأنها شابة يتطلب جسدها الفائر أنواعاً من التغذية لا تتوافر غالباً فيما يقدمه لها البيت من طعام... فأما في أوائل أيام الزواج، فإن أهلها يتكفلون لها بذلك، ففي الأسبوع الأول يظل أهلها يرسلون ما يسمى «العشاء الكبير» كل يوم. وهذا العشاء يتألف من ذبيحة أو نصف ذبيحة من الضأن أو الماعز، ومن ملء إناء كبير أو إنائين بالخضر المطبوخة، ومن «المشمشية» وهي المشمش الجاف مطبوخاً في الماء والسكر والسمن. وهذا كله يقدم لأهل الزوج، بينما يرسل للعروس والعريس قدر كاف من هذا الطعام مصنوعاً صنعاً أجود من العشاء الكبير، وكمية السمن فيه أغزر لأنه خاص بالعروسين. وتحمل هذا العشاء جماعة من البنات والنساء كل منهن تحمل إناء ويخرجن به بعد العصر من منزل أهل العروس إلى منزل أهل العريس في مظاهرة واضحة!

وبعد الأسبوع يتفاوت الناس في إرسال العشاء الكبير والعشاء الصغير فبعضهم يظل يرسل عشاء كبيراً في كل أسبوع وعشاء

صغيراً في كل يوم لمدة شهر من الزمان، ثم ينقطع العشاء الكبير ويستمر العشاء الصغير فترة أخرى، وبعضهم يطيل المدة أو يقصرها، حسب الحالة المالية من جهة وحسب البخل والسخاء من جهة أخرى . ويظل هذا كله مذكوراً على لسان القرية كلها بضعة أعوام أو على مدى الأعوام !

ولكن هذا كله إلى أمد ينتهي على الأكثر عند نهاية العام الأول ؛ وتظل العروس شابة لا تكتفي بنيتها بالطعام المشترك مع أهل الدار ... فلا بد لها أن تسرق إذن من وراء حماتها و«حماها» لتكمل نقص التغذية، ولتدس لها بائعة الأرجل والقلوب والأكباد والكلاوي والكرش كمية مناسبة في يومي الخميس والاثنين — اليومين اللذين تذبح فيهما الماشية في القرية — وتطهيها لها في دارها، ثم تحضرها زاعمة أن أهلها هم الذين بعثوا لها بهذه الكمية الإضافية، التي قد تكون لحماً وقد تكون شيئاً من هذه الأحشاء . أو لتدسها لها نيئة ، فإذا غفلت العيون قامت في الليل، وأنضجتها في حجرتها الخاصة وطعمتها هي وزوجها الشاب في غفلة من الرقباء !

وتسرق ربة الدار، لأن لها مطالب كمطالب زوجة الابن، أو لأنها تريد أن «تحوش» أو لكي تمد ولدها في دور خطوبته بما لا يمده به والده من نفقات .

وبعض أصحاب البيوت يكشفون هذه السرقات فيسكتون .

وهؤلاء هم العقلاء الكرماء، الذين يدركون حاجات أبنائهم وزوجاتهم، ويعلمون أنهم لا يفون لهم بمطالبهم، فيسكتون ... ولكنهم لا يحاولون أبداً أن يفوا بهذه المطالب حتى لا تقع هذه السرقات !

وبعضهم يصخب ويثور ويهدد، ويستجوب أهل الدار والخدم وبعض الزائرين والزائرات، فينكر الجميع طبعاً تهمة السرقة.

وهنا يأتي دور البخاري !

فهؤلاء الناس يستطيعون أن يحلفوا بالله كاذبين وبالنبي، وهم آمنون ... ولكن هناك أيماناً أخرى لا يقدمون عليها، وإذا أقدموا فكذبوا فقد حلت عليهم النقمة وأصابهم الأذى، ولم يعد لهم مفر من الجزاء المعجل في هذه الدنيا !

فاليمين الأولى التي لا يقدم عليها أحد هي يمين «المصحف» يضع المستجوب يده على المصحف ويغمض عينيه، ثم يقسم أنه لم يفعل ما يستجوب عنه .

واليمين الأقوى من يمين المصحف هي : «الشورى»، يقول المتهم «بشورى لم أفعل كذا» فإذا كان كاذباً نفذت في جنبه «الشورى» ! فأصيب بالعمى أو الكسر أو بمرض عضال لا ينجو منه بحال !

والأقوى من «الشورى» الحلف بولي من الأولياء. وهؤلاء يتفاوتون – فبعضهم لا يطيق الحلف به باطلاً فيسارع بعقاب الكاذب في التو والساعة بأن يأتي له في الرؤيا ويحذره أو يبطش به، وغالباً ما يقوم الحالم من نومه مفزوعاً فيقر بذنبه ويرجو الصفح والمغفرة – وبعضهم طويل البال يمهل الحالف قليلا أو كثيراً، ولكنه لن يتركه بحال، ولا سيما إذا كان الحالف قد وضع يده على قبة الشيخ.

أما اليمين المرهوبة المفزعة التي تهز أعصاب الحالف هزاً، والتي لا يقدم عليها إلا من كان واثقاً من صدقه، أو مستعجلا أجله، فهي يمين البخاري... ما أن يضع السارق يده على البخاري ويغمض عينه حتى يرتجف وينتفض جسده، وتعلو وتهبط دقات قلبه، وتبدو عليه علائم الفزع الكامل، فيعترف في الحال أو ينكل عن اليمين فيدل على نفسه بهذا النكول... فإذا هو خاطر وأقدم، فلن يكمل ثلاثة أيام، حتى ينفذ فيه البخاري، فيقع له ما يقع من الأحداث. وكثيراً ما يكون ذلك اختلاطاً في عقله واضطراباً في أعصابه يفضي به غالباً إلى الموت أو إلى الجنون!

ولما كانت ليمين البخاري تقاليد خاصة ومراسيم، فلا بد أن ينتقل صاحبه به إلى الدار المسروقة، أو يأتي بالمتهمين إلى داره ليتولى تحليفهم اليمين، في مقابل أجر معلوم.

نعم هناك طرق أخرى لكشف السارق وهي طريقة «المندل»

وطريقة الفنجان : فأما «المندل» فهو أبريق يملأ بالماء ويعلق بحبل من رقبته يمسك به «العراف» والمتهمون كلهم حوله في حلقة، ثم يتلو على «المندل» بعض الرقى والتعاويذ ويوقد بخوراً خاصاً، ثم يدير الأبريق من الحبل على الجالسين وهو يهزه بيده، فإذا كان الأبريق في محاذاة السارق دفق من صنبوره الماء، فيعرف الجاني بلا كلام !

وأما «الفنجان» فيستحضر صبي صغير سهل التنويم. ويمسك بيده فنجانة بها آثار قهوة، ثم يتلو عليه «العراف»، رقى وتعاويذ، ثم يأمره أن ينظر في قاع الفنجانة ليرى فيها حركة، ورجالا ونساء - هم طائفة من الجن حضرت للخدمة ويسمون خداماً - فيكلفه أن يأمرهم بالكنس والرش وصف الكراسي، فيرى الصبي أنهم يصنعون ذلك ! ثم يكلفه أن يأمرهم بإحضار المتهم، فيرى الصبي أنهم أحضروا رجلا أو امرأة، فيطلب إليه أن يتذكر من يشبهه هذا الذي أحضر، ويكون الصبي قد أرهق فيذكر اسماً ممن يعرف... فيأمره أن يصرف الخدام فيصرفهم ويستغرق في سبات عميق !

وإذن فقد عرف السارق، الذي كثيراً ما يكون قد أقر للعراف عندما علم أنه سيفتح الفنجان أو يدير المندل ! ! !

ولكن المندل والفنجان على السواء لا يبلغان من القوة، ما يبلغه البخاري، وبذلك تبقى يمين البخاري متفردة بين الأيمان

ولعلك تدرك بعد ذلك كم يكون لوجوده عند أحد الناس من قيمة كبرى في مثل هذه الأحوال .

* * *

لم يقدّر لصاحبنا أن تحوي مكتبته العظيمة نسخة من كتاب البخاري، لأنه ليس عالما في الأزهر، وليس «خطيبا» كهذين الخطيبين الشهيرين في القرية كلها بهذا البخاري وبالقدرة على «السحر» وبخاصة سحر الزوجات للأزواج، والضرائر للضرات، وربط الرجال وفكهم. والسحر للأعداء عامة بالخبل والمرض والجنون ... وكثير ما هم أولئك الذين يعيشون في القرية مسحورين في كل زمان ومكان !

ولكن إذا كانت قد فاتته نسخة البخاري، فلقد كان في مكتبته كتب أخرى، ضمنت له شهرة ذائعة، وصيتاً كبيراً – على صغره – في بيوت القرية، وعند كثير من نسائها خاصة، وكذلك عند فريق من الشبان .

كان في مكتبته كتابان : كتاب أبي معشر الفلكي . وكتاب شمهورش . ولكل منهما قصة، ساعدت على نشر شهرته، وإذاعتها :

فأما كتاب أبي معشر فكان في التنجيم . وكان يحوي عدة فصول . يذكر منها فصلاً خاصاً بالحظوظ المختلفة لمواليد كل شهر وكل فصل وكل يوم . وفصلاً خاصاً بالحظوظ المختلفة تستخلص من حروف اسم الشخص واسم أمه واسم الشهر الذي ولد فيه . وجمعها بحساب «الجمّل» ذلك الحساب المعروف الذي يستخدمه بعض النظامين في التاريخ : الألف تساوي واحداً والباء تساوي اثنين والجيم تساوي ثلاثة على توالي : «أبجد . هوّز . حطّي . كلَمُنْ . سعفَص . قرشت ...» فالحرف العاشر فيها وهو الطاء بعشرة، ثم تبدأ الياء بعشرين والكاف بثلاثين، إلى نهاية العشرة الثانية وهي القاف ثم تبدأ الراء بمائتين و ... وهكذا – على ما أذكر – وهو حساب مأخوذ من اللغة العبرية القديمة .

ثم كان في هذا الكتاب فصل، يغمض طالب «البخت» عينه ويضع أصبعه على الصفحة التي تحوي أرقاما متناثرة، فالرقم الذي تقع عليه أصبعه هو رقم صفحة خاصة في الفصل خطت فيها حظوظه في الماضي والحاضر والمستقبل، كما قد خطت معلومات عن صفاته وأخلاقه وخصومه وأحبائه، وسائر ما يتعلق به، وما ينبغي أن يعمله، وما يجب أن يحذره ... الخ

وأما كتاب شمهورش، فيحتوي على كثير من الرقى والتعاويذ وصور القمائم، ووصفات البخور، بعضها يجلب المحبة وبعضها يجلب السعد، وبعضها مما يدخل به على الحكام، فينال صاحبه القبول وقضاء الحاجات مع الاحترام .

تسامع نساء القرية وشبانها بالكتابين، فأقبل الجميع على صاحبنا الصغير إقبالا منقطع النظير، وذلك لأسباب كثيرة!

منها أنه لا يتناول أجراً على الخدمات التي يقوم بها لهؤلاء ومنها أنه صبي يدخل البيوت وتقابله النسوة والفتيات بلا تحرج، ودون أن يثير وجوده بينهن تساؤلا كالذي يثيره وجود من يتعاطون هذه الأعمال من الكبار. ومنها أن السيدة أو الفتاة، لا تتحرج أن تفضي برغباتها وأسرارها ومخاوفها لصبي لم يبلغ الحلم ولا تدعو سنه إلى الخجل منه. وشيء من هذه العوامل كان في نفوس الشبان، إذ كانت معظم المهام التي يندبونه لها هي مهام سرية من هذا النوع أيضاً!

كان يحضر من المدرسة فيجد كثيراً من التوصيات بطلبه من عدة بيوت، وبعضها كان يرسل رسولاً يترقبه ليحضر به، وبخاصة بعد أن عرف الجميع أنه «مشغول» بالكثير من هذه الدعوات.

والحق إنه كان يحس بنشوة عجيبة والطلبات تتوالى عليه، والأبواب جميعها تفتح له. ولقد كان صغيراً لم تثر في نفسه نوازع الجنس بعد، وتربيته المنزلية تجعل في نفسه كثيراً من الحشمة والحياء حتى لو ثارت بعض هذه النوازع ... ولكن إحساسه بالجمال الحي كان مرهفاً... فكانت هذه الزيارات والمقابلات، ومعظم موضوعاتها يدور على الحب ودواعيه، مما يغذي فيه هذا

الشعور الوليد الغامض، ويحبب إليه هذه الزيارات والمقابلات التي يجد فيها لذة غامضة عجيبة !

ومن الحق أيضاً أن نقرر أنه لم يخالف وصايا «عم صالح» وعهده الذي عاهده عليه، وهو يستأمنه على هذه الكتب الخطيرة، فلم يطع مرة نزوة شاب في استهواء فتاة محجبة أو زوجة محصنة، ولم يطع هوى ضرة تريد أن تكتب لضرتها بالعمى، ولا حتى بكراهية زوجها لها. إنما كان يستجيب لرسائل المحبة بين الأزواج واستهواء الكاره ليعود إلى مطلقته، والشاب المرغوب فيه ليتقدم لخطبة فتاة تهواه !

أما معرفة الحظوظ فلم يكن هناك ما يمنعه أن يفضي فيها بما تكشف عنه النجوم، حسب تعاليم كتابه العظيم !

• • •

من هذه النواحي كان راضياً عن نفسه، راضياً عن مكتبته، مغتبطاً بسعة ثقافته، وبسعة شهرته كذلك !

ولكن كتاباً آخر كانت منه نسخة واحدة في القرية كلها، يملكها شاب قريب له يكبره في السن. هذا الكتاب كان يود لو

يملكه، فتمّ له معالم الثقافة والشهرة في القرية جميعاً. ولكن هذا الكتاب الفريد ظل عزيزاً عليه، فلم يستطع سبيلا إليه.

ولو كان لهذا الكتاب نظير يشترى بالمال لاشتراه، ولأوصى «عم صالح» أن يستجلبه له بأي ثمن كان. ولكنه مع الأسف مخطوط بخط النبي سليمان عليه السلام، وسليمان قد مات، ويبدو أنه ــ رحمه الله ــ لم يكتب إلا نسخة واحدة من هذا الكتاب، هي التي وقعت في يد قريبه الشاب، حملها إليه مغربي يفتح الكتاب، ثم لم يعد بعد ذلك أبداً، ولن يعود!

لقد باعه له بكيلتين كاملتين من القمح، بذل النفس والنفيس في سرقتهما من مخزن الغلال، وذلك فوق ريال من النقود أمدته به والدته، التي كانت حفية بمثل هذا الكتاب النادر الثمين!

ذلك كان «كتاب الكنوز»!

إن ما على ظهر هذه الأرض من الأموال والجواهر لا يعادل عشر معشار ما يحويه بطنها من الكنوز... ولكن هذه الكنوز مرصودة، ولا تفتح إلا بقتل الأرصاد التي هي ديوك مسحورة غالباً، أو كلاب، أو خدام جنيون. وهذه لا تقتل إلا ببخور خاص وتعاويذ خاصة، وتجارب تذهب في سبيلها الأرواح.

ولما كان «المغاربة» هم المختصون بهذه الشؤون كلها، فقد كانوا يفدون واحداً بعد الآخر إلى القريـة ــ والقرية حافلة

بالكنوز ـ منها كنز يصل بين كنيستها والدير . وهذا الدير في حضن الجبل، فهو يستغرق مساحة يزيد طولها على خمسة كيلومترات كلها حافلة بالكنوز من شتى الألوان. لا بل إن بيت جده لوالدته ليحوي كنزاً كادوا يظفرون به في مرة، لولا نفاد البخور من المغربي . والبخور ينفد دائماً قبل إتمام العمل، ويحتاج إلى نقود كثيرة ليأتي به من البلاد البعيدة، والمهالك الكثيرة . فإن كتبت له السلامة عاد ؛ وإلا استعوضوا الله فيه وفي نقودهم . وهو دائماً لا يعود، إلا أن يأتي بقسط من البخور ينفد من جديد ! ! !

هذا الكنز الذي في بيت جده لوالدته مرصود، رصدُه ديك، طريقة استخراجه أن يجلس الساحر في ركن مظلم وأمامه البخور، وفوق البخور «طاسة» من النحاس، ثم «يُعزّم»، فتتحرك الطاسة طائرة من ركن الحجرة إلى الركن الآخر، ثم تهبط . وعندئذ تنشق الأرض، ويخرج منها الديك يصفق بجناحيه ويصيح، فترتج قوائم البيت ويكاد يسقط على من فيه .. وحينئذ يكون جماعة من الرجال مستعدين بالبنادق، فيضربون هذا الديك برصاصهم بينما يستمر الساحر في التعاويذ وفي البخور، فإذا أصابوه فتح الكنز، وإذا أخطأوه تعرضت حياتهم للخطر .

ولقد تمت هذه المراحل كلها في مرة من المرات، إلا الخطوة الأخيرة . ويقسم رجال أنهم رأوا الطاسة تطير، ورأوا الأرض تنشق، ورأوا الديك يخرج، وسمعوه يصيح، وصوبوا عليه، ولكن البخور كان قد نفد، وانطفأ البخور، فأظلم المكان، وخروا

جميعاً مصروعين. لأن الرصد كاد يفتك بهم، لولا أن ذكر الساحر اسم الله الأعظم. فكان هو المنقذ الوحيد!

وذهب الرجل ليعود بالبخور، ولا يزالون إلى اليوم في انتظاره، أو انتظار «مغربي» جديد!

لو ملك هذا الكتاب إذن لتغيَّر كل شيء في حياته. ولكن قريبه هذا ضنين بالكتاب، فهو مصدر ثروة خيالية مغرية، وإن كانت ثروة معطلة، فالبخور المطلوب غير موجود، ولا بد من مغربي يستحضره من المهالك والمفاوز... وقد ظل قريبه ينتظر، كما ظل يجري بعض التجارب الممكنة في كتابه، حتى انتهى به المطاف إلى دنيا جميلة طليقة من كل القيود، يجد فيها كنوزه هذه بلا رقى ولا «تعازيم»، وبلا بخور كذلك ولا كتاب. وهو الآن ينعم في هذه الدنيا الجميلة الطليقة، ويتمتع بهذه الكنوز الغالية كل المتاع!!!

أما الطفل فقد رضي بنصيبه من الكتب، وظل زبوناً مخلصاً لعم صالح، وشيئاً فشيئاً أصبحت مكتبته هذه مصدر حركة ثقافية دائمة، بما اجتمع له فيها من كتب ثمينة، تظل تستعار على مدار العام! أما في السنتين الأخيرتين من إقامته بالقرية فقد حدث تطور خطير في هذه المكتبة لا يخطر لأحد على بال.

كان ذلك في نهاية الحرب العظمى الماضية. وكان بالمدرسة

ناظر شاب يتقد وطنية، ولما كان والد الطفل عضوا في لجنة الحزب الوطني، ومشتركاً في صحيفة يومية، فقد كان منزلهم مثابة للوطنيين من رجال القرية، وهذا الناظر الشاب كذلك، الذي انعقدت صداقة حميمة بينه وبين والده .

في هذه الاجتماعات كانت تدور أحاديث يحضر بعضها الصبي وبعضها كان سرّياً لا يعلم عنه أحد شيئاً . وكان يسمع اسم « افندينا عباس » واسم الشيخ عبد العزيز جاويش. واسم محمد فريد. واسم أنور باشا التركي. وطلعت، ورؤوف وسفينته « حميدية » التي أذاقت الحلفاء الويل ! وكانت تروى عنها وقائع كالأساطير !

كان شعور القرية كلها متجهاً إلى تركيا دولة الخلافة ضد الحلفاء الذين كانوا يمثلون « الكفرة » يصارعون دولة الاسلام !

وكان يبدو أن هناك شعوراً معيناً يختمر . يذكر الآن ذلك. ويدرك أنه وهو طفل كان يتوقع في حسه – مع هؤلاء الرجال – شيئاً غامضاً لا يدري ما هو ولا كيف يقع . ولكن شيئاً ما سيحدث والسلام . وكانت الاجتماعات السرية التي تعقد في منزله. والأبواب مغلقة والأصوات تجري همسا . كانت هذه الاجتماعات تلقي في روعه هذا الشيء الغامض الذي لا يدريه .

وشيئاً فشيئاً أخذ يشارك الكبار فيما يخوضون فيه. ولا سيما أنه كان قد وصل إلى السنة الرابعة الأولية. وكان كثيراً ما يتولى

بدلاً عن والده قراءة الجريدة للجمع الحاشد الذي يحضر لاستماعها في منزلهم .

وكان هذا قد لفت إليه نظر الأستاذ الناظر ، مضافاً إليه تفوقه في الدراسة، ولا سيما في دروس اللغة العربية ... عند ذلك وجده أهلاً لأن يعيره كتابين عظيمين، وجد فيهما الصبي طرازاً آخر غير ما تحوي مكتبته العظيمة من شتى الثقافات .

أحدهما ديوان رجل يسمى «ثابت الجرجاوي» والآخر كتاب تاريخي لمحمد بك الخضري في مقدمته صورة عباس الثاني وتنويه بمآثره .

فأما الديوان الأول فيحوي قصائد وطنية: يدرك الطفل الآن أنها كانت نظماً في غاية الركاكة والسذاجة. أما في ذلك الحين فقد كانت في نظره إعجازاً من الإعجاز . إذ كانت أفضل من قطع المحفوظات التي تحملها ذاكرته ، مثل :

اسلك بنيّ مناهج السادات   وتخلقن بأشرف العادات

أو :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحسان

أو :

قال ذو الأصبع العدواني يوصي ابنه : «عليك بالمال وتنمية، إن المال آلة للمكارم، وعون على الدهر ، وقوة على الدين .

ومألفة للإخوان، ومعين على حوادث الزمان...» إلى آخر هذا الكلام الذي لم تكن بينه وبين نفسه صلة ما، إنما هو كلام يحفظه والسلام.

كان يجد في هذا الديوان كلاماً يغذي الروح الوطنية في نفسه تلك الروح التي أيقظها الجو العائلي الذي يعيش فيه، والجو العام الذي كان مليئاً بتيارات كهربائية خفية تستعد للانفجار.

ولا يزال يذكر بعض مقطعاته مثل:

وطني عزيز لا أروم سواه ... مهما تسورت العدا مبناه!

أمسي وأصحو من عناه على لظى ... يبدي نشيده للملا معناه!

وفي النهاية:

ما ثابت الجرجاوي قال مؤرخاً ... وطني عزيز لا أروم سواه!

وقد زاد من قيمة هذا الديوان في نظره، علمه بأن صاحبه سجين سياسي، وأن هذا الديوان مصادر بحكم الأحكام العرفية في ذلك الحين.

وأما كتاب التاريخ، فقد أعزه في نفسه أن صاحبه كتب في نهاية مقدمته:

«وقد لا يعاد طبع هذا الكتاب، حتى تكون قد محيت منه

هذه الفقرات» يعني الفقرات الخاصة بتمجيد «الخديو عباس حلمي الثاني».

وإذن فبين يديه كتابان نادران ثمينان، وفيهما مادة وطنية تشتاق لها نفسه المتعطشة لهذا النوع من الغذاء. ولما كان لا يتصور أن لهذين الكتابين نظيراً، ولا أن صاحبهما يتزل له عنهما، فقد احتفظ بهما في صورة أخرى:

جمع من جميع كراساته في السنوات الماضية الأوراق البيضاء منها، فصارت له كراسة ضخمة من الورق الأبيض. أما المداد والأقلام فموفوران... وأخذ في صبر ودأب عجيبين ينقل الديوان بيتاً بيتاً إلى هذه الكراسة، وينقل مقدمة كتاب التاريخ الأثرية التي لن يعاد طبعها حتى تمحى منها هذه الفقرات!

وإنه ليعجب اليوم لنفسه كيف استطاع أن ينهض بهذا العمل، ولكن الأعجب منه أنه حفظ هذا الديوان حفظاً جيداً وظل يذكره بعدها سنوات وسنوات!

وحينما انطلق في القرية يحدث أصحابه بمحفوظاته الجديدة، ويزعم أن هذا الشعر لرجل يعيش في هذه الأيام، لم يصدقه أحد... فالشعر خاصةٌ عربية لسكان الجزيرة الأوائل، ولن يستطيع أحد بعدهم أن ينظم بيتاً واحداً من الشعر. ولما زاد لهم أن هناك شعراء آخرين يعيشون اسم واحد منهم شوقي واسم الآخر حافظ ـ وكان قد علم نبأهما من أستاذه العظيم ـ لم يبق واحد لم يستنكر هذا الزعم الذي لا يصدق بحال!

وإذا كان حريصاً على إثبات صحة دعواه، فقد تراهنوا على أن يصبروا حتى يعود بعض الذين يتعلمون في القاهرة من علماء الأزهر، أو ذلك الذي يتعلم في دار العلوم. أو ذلك الذي يتعلم في الحقوق – ومن هنا ترى أن القرية كانت قد نهضت نهضة كبرى!. ليستفتوهم في هذه القضية الخطيرة، ويصلوا فيها إلى قرار صحيح(١).

أما هو فقد كان واثقاً أن هنالك في هذا العصر من يكتبون شعراً ونثراً كالذي يقرؤه في الكتب. ودليله على وجود الشعر ذلك الديوان، وما قاله له الأستاذ عن شوقي وحافظ. أما دليله على النثر فقطعة الإملاء التي جاءت لهم في الامتحان، وهي من تأليف هذا الأستاذ نفسه:

«أنظر إلى الجمل، تر رقبته طويلة، ورأسه مستطيلة (كذا) خلقا على هذه الهيئة ليتزن بها جسمه ...» وهو نثر من أبلغ النثر! وهو من صنع إنسان معاصر!

ثم لقد سمع أن هذا الرجل الذي يدرس في دار العلوم حين يحضر في العطلة الصيفية يخطب في المساجد خطباً من تأليفه، لا يستقيها من كتاب. على أنه كان متشككاً في هذه الواقعة بالرغم من حلف بعض أقرباء هذا الرجل على صحة هذه المعجزة، وأنهم رأوه «ينشيء من باله» ولا ينقل من كتاب!

* * *

---

(١) تغير هذا كله، وأصبحت الصحف اليومية والمجلات الاسبوعيــة والشهرية والكتب الأدبية تصل الى القرية وبين أبنائها عدد ينظم الشعر ويكتب الصحف.

وحين نفخ في بوق الثورة المصرية الكبرى، وقف هذا الأستاذ أمام صفوف التلاميذ، وألقى عليهم خطبة وطنية نارية، وقال لهم : إن المدرسة ستغلق إلى أجل غير مسمى ، لأنه هو وزملاءه ذاهبون للعمل في الثورة فهذا واجب كل إنسان !

ووقعت المعجزة التي كان يتشكك فيها تارة، ويؤمن بها تارة : وقعت المعجزة على يده هو، فانطلق في حماسة الثورة وفورتها، يكتب هو الخطب ويضمنها أبياتاً من الشعر – يحسبها موزونة وهي منهالكة – ويلقيها في المجامع والمساجد حيث نفخت الثورة المقدسة في الجميع، فصاروا يستمعون لكل هاتف بالثورة، ولو كان طفلاً صغيراً مثله لم يكد يتجاوز العاشرة !

لقد كان الاسم المقدس الجديد .. هو اسم سعد زغلول ...

قـانون اللصوص



استطاع الصبي أن يقاوم في نفسه أسطورة العفاريت، وأن يسير في منعرجات القرية آمناً أو شبه آمن ... ولكنه لم يستطع أن يغالب الفزع الذي كان يستولي على نفسه، عندما يلتقي وجهاً لوجه بذلك المخلوق المقيت ... المسمى حرحور!

ومع أن حرحور هذا كان يهش له إذا مرَّ بمنزله ذاهباً إلى بيت جده. ومع أن امرأته التي كانت تجلس دائماً داخل الباب المفتوح ترقب الرائحين والغادين، بينما زوجها يجلس على «المصطبة» خارج الدار وبيده مغزله غالباً أو نبوته في بعض الأحيان. مع أن امرأته هذه كانت توصوص له بعينيها وتبتسم وتدعوه إليها فإنه ظلّ يفزع من حرحور، وظل يمقت زوجته حتى بعد أن كبر قليلا. وصار يستطيع التفكير!

كان حرحور هذا لصاً، ولكنه لم يكن اللص الوحيد في القرية إلا أنه دون من يسمع عنهم جميعاً كان يسبب له هذا الفزع الذي يتحول بسرعة في نفسه إلى مقت، حتى ليود أن يقابل الشيطان ولا يقابل هذا الرجل بالليل أو بالنهار.

لم تكن امرأة حرحور من القرية. بل كان أصلها «غجرية» تعشقته في شبابه «فحازها» كما يعبِّر أهل القرية عن العشيقات، ثم تزوجها. تعشقته لأنه كان فاتكاً من الفتاك «ولد الليـل» كما

يسمون اللصوص الأشقياء، الذين لا يتورعون عن القتل، بل الذين يتخذونه ألهية يتلهون بها في مغامراتهم الكثيرة .

ثم ولدت له ثلاث بنات، فنشأن جميعاً كأمهن . وطارت لهن شهرة خاصة، فأصبح البيت ومن فيه مصدر فزع للأمهات اللواتي يرجون أبناءهن في سن الشباب، وللزوجات اللاتي يختطف منهن أزواجهن هذا البيت المقيت !

وكان له هو أخ غير شقيق يكبره بجيل كامل، ولكنه كان شاباً وكان له بهذا البيت صلة، وكانت الأسرة كلها تهمس بهذه الصلة في خوف وذعر، والطفل يسمع هذا منذ نشأته، ولا يعرف حقيقة الأمر، إنما يخيل له أن هذا البيت يخطف الشبان حقيقة فلا يخرجون منه أبداً. ولما كان يحب أخاه هذا، فقد كان دائم الخشية عليه من ذلك الوكر اللعين !

ثم عرف. فلم تزده المعرفة إلا مقتاً إلى جانب الفزع والخوف الأصيلين ... وهكذا ظل يتحاشى المرور بالوكر المخيف ... حتى غادر القرية في سن المراهقة ... بل إنه ليحس شعوراً غامضاً كلما مر بهذا البيت حتى الآن !

• • •

لم يكن حرحور وحده في القرية ... فاللصوصية في الريف حرفة معترف بها في أغلب الأحيان ! حرفة لها أصولها وتقاليدها بل لها قوانينها المعلومة للجميع .

ثم هي المجال المفتوح للشبان من كل طبقة ـ حتى أبناء الأثرياء الذين لا يقال : إنهم يسرقون ليعيشوا ـ إنما هي فتوة يدعونها «فتـوَنـة»، يمارسها الشاب في أول صباه، تصريفاً للطاقة المختزنة في بدنه، والتي لا يجد لها تصريفاً إلا في هذا النشاط الليلي المرذول .

فكثير من هؤلاء يلتحقون بمناسر اللصوص ـ أولاد الليل . الفلاتيّة . الرّجالة ـ إذ تشوقه المغامرات التي يسمع عنها، والتي لا يجد من الوسط استنكاراً لها، بل ربما وجد الإعجاب في موضع الاستنكار (ولعل هذه بقية من تقاليد الأعراب التي اندست في البيئة المصرية والتي تعد الفتك والسلب بطولة وشجاعة) .

وميزة هؤلاء الفتيان أنهم لا يقاسمون في الكسب، فما خرجوا ليسرقوا، ولكن ليغامروا، فإذا وقع للمنسر شيء، فنصيبهم منه متروك للمنسر، أو لمن منعه مانع قاهر من أفراده عن المشاركة، كما لو كان سجيناً، أو مصابا في حادث سابق ، فإن نصيبه يظل يؤدى لأهله الذين يعولهم، حتى يعود إلى مزاولة عمله الشريف !

ذلك أحد قوانين اللصوص ... ومنها أن «الرجال للرجال» وتفسير هذا النص أن لا يسطى على منزل لا رجال فيه، أو فيه رجال ضعفاء عجزة ... واللص الذي يسطو على بيت أرملة أو ضعيف، هو اللص «النتن» الذي يحتقره رفاقه وأهل القرية جميعاً بينما كبار اللصوص الذين يسطون على بيوت الأقوياء والأثرياء محل احترام من الجميع، فوق أنهم موضع الرهبة من الجميع !

ومن قوانين اللصوص، أن تقسم القرية أقساما، كل قسم من اختصاص منسر أو فرد، فلا يجوز لمنسر آخر أن يعتدي على اختصاص زميله، وإلا وقع الدم رداً للإهانة، ومحواً للعار الذي يتسامع به الجميع، فلا يعود للمنسر أو اللص الكبير قيمة في البلد ولا في البلاد المجاورة!

وأحياناً يكون للص أو للمنسر إتاوة مفروضة على بعض الناس في نظير الحماية التامة من السرقات. فمن اعتدى من الآخرين على هذا الذي يتمتع بالحماية، فقد اعتدى على هذه الحماية وأصحابها، ولا بد أن يرد المسروق بلا «حلاوة» أو يراق الدم صيانة للشرف الرفيع!

أما هذه الحلاوة فأمرها عجيب:

تقع السرقة في بيت أو حقل، وتسرق المواشي أو عدد الآلات الارتوازية التي تروي الأرض في غير أيام الفيضان. وفي تسعين في المائة من هذه السرقات يكون لدى عمدة القرية خبر سابق بها، شأنها شأن حوادث القتل الكثيرة، ويكون له جعل معلوم في كل ما يسرق في نظير الحماية التي يبسطها على الفاعلين لو أبلغ الخبر إلى بوليس المركز. وقلما يوجد الرجل الغرّ الذي يبلغ أمر السرقة إلى المركز، فيضيع عليه ما سرق منه إلى الأبد!

إنما الطريقة المتعارفة أن يصبح الصباح، فإذا القرية كلها تعلم أن بيت فلان أو حقله قد سرق... سرقه فلان من البلد أو من

لصوص البلاد المجاورة، وكلهم معروفون. ولكل منسر «قعيدة» (أي رجل قاعد يتولى تصريف ما يسرقون دون أن يشترك معهم في المغامرة، وله نصيب معلوم) ...

يذهب صاحب المسروق إلى هذا القعيدة فيسأله: الشيء عندك؟ فإن كان عنده أجاب بالإيجاب آمناً مطمئناً. وإن لم يكن عنده صارح صاحب الشيء بأنه عند فلان - قعيدة آخر - أو أن «الشيء فرّط فرطُه» أي هلك نهائياً ولا سبيل إليه بعد .. فكثيراً ما يخشى اللصوص أن يضبطوا فيذبحوا الماشية ويبيعوها لحما، أو يبيعوا المسروق لمنسر آخر في جهة بعيدة يتولى أمره، إذا اتضح أن المجال ضيق لإخفائه قريباً ...

فأما إذا قال القعيدة: إن «الشيء» عنده أو في دائرة اختصاصه فتبدأ المساومة على «الحلاوة». أي الجعل الذي يؤديه صاحب الشيء ليرد إليه ما سرق منه. وهو في الغالب يساوي نصف الثمن، وتبدأ المساومة بأن يذكر القعيدة الرقم المطلوب، فيرد صاحب الشيء متظلماً من قسوة الفرض، وربما أدخل في هذا التظلم أنه رجل فقير، وأن حاله تستدعي استعمال الرأفة! وغالباً ما تؤثر المساومة، فتنزل الحلاوة قليلا .. فإذا أفلح كان بها .. وإذا لم يفلح انصرف وبعث «بواسطة» يساوم القعيدة، فقد يستطيع أن «يهز» الحلاوة. أي ينقصها. وتكون حجة القعيدة دائماً أن الأمر ليس امره، إنما هو «واسطة خير!» ويكون الرد دائماً: «لا يا أبا فلان، إنما أنت الكل في الكل ونحن عارفون!» إلى أمثال هذه العبارات التي تنتهي دائماً بأداء الجعل ورد المسروق،

رده بكل تأكيد، فالشرف ـ أي والله الشرف ـ يقضي بهذا في قانون اللصوص !

وإذا رد المسروق بعد أداء الحلاوة أو الحلوان، فإن قانون اللصوص يقضي أن يكون هذا الذي رد في حماية من السرقة كرة أخرى . فالشرف يأبى سرقة الشيء الواحد مرتين !. وتارة تكون هذه الحماية قاصرة وتارة تكون شاملة . فأما الأولى فمعناها ألا يعود المنسر أو اللص إلى سرقة الشيء المردود . وأما الثانية فمعناها أنه يحميه من كل سارق آخر ، ويعد الاعتداء عليه اعتداء على شرفه !

• • •

فأما إذا خطر لصاحب الشيء أن يسلك الطرق الأخرى القانونية فيبلغ العمدة ؛ وهذا بدوره لا بد أن يبلغ المركز ـ لأنه هو الآخر رجل شريف ! ـ فقد انتهى الأمر ، وضاعت السريقة ، وتهيأ صاحبها لسرقة أخرى لا بقيه منها أحد ... اللهم إلا أن يصادف يقظة أحد من أصحاب الدار ، أو ذمة خفير يتقي الله ... وهؤلاء قليلون !

• • •

والسطو على البيوت أو الحقول لا يقع دائماً للسرقة، بل قد يقع للانتقام . يهجم الشقي على البيت فيبقر بطون الماشية أو يمزق

أحشاءها «بسيخ» طويل ملوث بمادة سامة، أو غير ملوث، انتقاماً من صاحبها لا ليسرقها. ويهجم لتحطيم آلات الساقية أو إحراقها أو إحراق الآلة الارتوازية أو الجرن، أو الحظيرة على سبيل الانتقام ...

وفي هذه الحالات لا مجال «للحلاوة» إنما هو انتقام بانتقام... وهذا هو الذي يقع غالباً، فإما أن يرد الجميل إلى بيت اللص وحقله وماشيته ! — ومعظم اللصوص لهم حقول وماشية ولهم بيت طبعاً في القرية — وإما أن يترصد له لقتله بوسائل شتى. وفي النادر القليل تبلغ الحادثة للمركز للتحقيق، فتحضر «النيابة» للمعاينة ويحضر معها الطبيب الشرعي عندما يقتضي الأمر. وتهتز القرية اهتزازاً لحضور الحكام ... ولكن قلما يؤدي هذا إلى شيء، لأن القرائن غالباً مفقودة ... إما خوفاً من الفاعلين، وإما إبقاء عليهم ليتولى أصحاب الشأن تسوية حسابهم معهم على انفراد، كي لا يكونوا أعجز من الثأر لأنفسهم ؛ فما يلجأ إلى الحكومة إلا العجزة والضعفاء !

ومثل هذا يقع في حوادث القتل للثأر ... تلك الحوادث التي تتكرر دائماً، وتظل نارها مورثة جيلاً بعد جيل، وقد يقتل الرجل وله طفل صغير واحد، فما تزال أمه، وما يزال الناس في القرية يقصون على مسامعه حديث أبيه القتيل، حتى يتهيأ للثأر بمجرد أن يشتد ساعده، وحينئذ فقط تقام للقتيل جنازة، ويقبل أهله العزاء، وإلا بقي الأهل معيرين في القرية. لا يرتفع لهم رأس قبل الأخذ بالثأر .

ويصادف غالباً ألا تقع جرائم القتل في القرية، إلا والعمدة غائب عنها قبيل وقوع الحادث بأيام!

ويؤول الناس هذه المصادفات، بأن في الأمر سراً معلوماً... ففي كل مرة يكون العمدة غير مسؤول عن الجريمة، ولا عن جمع القرائن والشهادات، لأنه لم يكن حاضرها من قبل ومن بعد بأيام!

* * *

حادثان من الحوادث الرهيبة لا يزالان محفورين في ذاكرة الصبي وخياله:

فأما أولهما: فذلك يوم استيقظت عمته وزوجها وأبناؤها، فإذا بهائمهم جميعاً إما مبقورة البطون وإما ممزقة الأحشاء، وإما مسمومة بمادة كاوية دست في الأمعاء...

في هذه الحادثة كانت تتجلى القسوة المقيتة، فهذه العجماوات كان يراها تتلوى من الألم القاتل، ولا ذنب لها إلا أن شقياً لئيماً أراد أن ينتقم من أصحابها هذا الانتقام الخسيس!

وحضرت النيابة وطبيب بيطري فيما يذكر، حاول أن ينقذ هذه الحيوانات البائسة بكل ما يستطيع، فأخفق إلا في عجلة بقر صغيرة غسل لها أمعاءها من السم فعاشت، بينما نفق سائر الحيوان

بعد صيحات من الألم والتلوي كانت تسيل الدموع من أعين الآدميين .

وفي هذه المرة لم يكن «الحكيم» مصدر رعب وفزع ، إنما أحسّ الناس أنه رسول رحمة حتّى للحيوان!

أما الحادث الثاني فلم يشهده، ولكنه سمع قصته تروى عشرات المرات ... كان حديث القرية كلها نساء ورجالا وأطفالا . وكان بدنه يقشعر منه . ولكنه يستعيد القصة مرة ومرة وخياله يتابع مناظرها في فزع مرغوب !

ذلك حادث ثلاثة من الشبان كان أحدهم قد تزوج ابنة عمه، ثم أراد هذا العم أن يطلقها منه فأبى، فرفع عليه دعوى في المحكمة الشرعية من تلك الدعاوى الكيدية ...

وفي يوم من أيام الجلسات كان هذا الشاب ذاهباً إلى المحكمة — في البندر — ومعه شقيقاه . وبين القرية والبندر تنبسط الحقول الخضراء، ويصبح الطريق الضيق الذي يقطعه السالكون على ظهور الدواب خطاً دقيقاً بين النباتات العالية، لا يتبين السائر فيه إلا من بعد قليل .

بكّر الإخوة الثلاثة لأنهم كانوا فقراء لا دواب لهم، فهم يقطعون الطريق على أقدامهم من القرية إلى المدينة، ويبلغ طوله نحو عشرة كيلومترات ، فلا بد لهم من التبكير قبل راكبي الدواب للوصول في الميعاد ... وهذا الميعاد هو مطلع الشمس، حيث

يذهبون إلى المحكمة ولم تفتح أبوابها بعد، فيجلسون أمامها إلى أن يؤذن لهم بالدخول، وذلك كله رهبة من المحكمة ... فالأسلم أن يكونوا هناك قبل موعد الجلسة بساعات !

وعرف العم الفاجر هذا فبكَّر قبلهم ومعه اثنان من الأشقياء استأجرهما لهذا الغرض مسلحين. فكمنوا للأشقاء الثلاثة في مكان منقطع من الطريق . وهم في مأمن من المارة الراكبين الذين يصلون متأخرين .

وعند مرور الإخوة بادر الشقيان فأغمدا خناجرهما في بطن اثنين منهما فخرّا صريعين، وتنبَّه الثالث ففر، والثلاثة يتبعونه، وهو يصيح مذعوراً فلا يلبيه أحد في الحقول النائمة، حتى أمسكوا به أخيراً ودخلوا به حقل الفول النامي وهو يقارب قامة الرجل وهناك جروا الأخوين الجريحين بعيداً عن طريق المارة فقضوا عليهما القضاء الأخير ، والأخ الثالث ينظر ولا يستطيع الصياح.

ثم جاء دوره، فإذا هو يستعطف عمه الوحش بما يلين الحديد، يقول له : لمَ تقتلني يا عمي ؟ ما ذنبي الذي صنعته معك ؟ أما يكفي أخي وأخي ؟ لقد قتلت غريمك فأطلقني . إن أمي وحيدة وأنا عائلها بعد أخويّ هي والطفل الصغير الذي خلفه أخوك . أعتقني لوجه الله، ولك عليّ الصمت عن كل ما حدث . أقسم لك !

ولكن العم الفاتك لم يسمع لهذا كله، وخاف إن هو أطلقه أن ينم عليه وعلى شريكيه ... وقيل : إن هذا التوسل ظل ينبعث من

الشقيق الثالث نصف ساعة، والعم لا يلين... ثم ... أجهز الشقيان على الثالث المسكين...

فعل المجرمون فعلتهم وانصرفوا ... وبقيت الجثث الثلاث لا يدري عنها أحد شيئاً، حتى انقضى اليوم كله ولم يعد الإخوة إلى أمهم المنتظرة. وأصبح الصباح وأمسى المساء يوماً ثانياً وهي تنتظر على أحر من الجمر ... وفي اليوم الثالث انبعثت الرائحة وشاعت الإشاعات، وظلت تنتقل وتنتقل، حتى تصل إلى العم الشقي فتهبط على وجهه المقيت ...

ولم تغفل عين الله عن المجرمين، فاهتدى إليهم التحقيق ... وقيل إن وكيل النيابة المحقق كان ينسى مهمته في بعض الأحيان فتأخذه الحمية، حتى ليتمنى لو أن الأخ الرابع وهو صبي قد انتهز الفرصة أمام المحقق فهجم على العم المتوحش فأرداه، ليثبت في تحقيقه أنه ارتكب ما ارتكب في حالة جنونية، لأن جثث إخوته الثلاثة مبقورة البطون! ممزقة الأحشاء وأمامه المجرم العاتي يذكره بالجريمة الشنعاء!

ولكن الوليد كان أعجز من هذه المحاولة. ولعل خيال القرية هو الذي صور لها وكيل النيابة في هذه الصورة؛ بل لعل وكيل النيابة كان كما هو صورة خيال القرية إزاء الجريمة الوحشية الفظيعة، فلقد ظل هو كلما سمع القصة يتمنى هذه الأمنية. يتمنى لو شحذ الصبي الرابع مديته فبقر بها بطن العم المتوحش ... ومع أنه كان يعلم أن ذلك لم يقع ولن يقع أبداً، فإن خياله كان يتم القصة دائماً بهذه الخاتمة المتمناة!.



جمع الأسئلة
مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

صحت القرية مروّعة على صهيل الخيل، وقعقعة السلاح، وخطوات الجند الثقيلة، يأخذون مشارفها جميعاً إلى الحقول، ويجوسون خلالها في جلبة وضوضاء، على غير عادة لها من زيارة الجند في مثل هذا العديد وذلك الضجيج.

وكان أول من كشف الخبر أولئك الذين تقتضيهم أعمالهم أن ينهضوا مع الفجر مبكرين ليغادروا القرية إلى الحقول ... وهؤلاء تلقفهم الجند الآخذون بمشارف القرية جميعا، فأوثقوهم بالحبال والسلاسل، وجعلوهم عندهم رهينة حتى لا يعودوا فينبئوا القرية النبأ، ويفسدوا التدبير الذي وضعته القوة الهاجمة على الناس وهم نيام.

ونفذت الخطة نفسها مع خفراء المشارف، فأديرت أيديهم إلى ظهورهم، وكممت أفواههم بحيث لا يستطيعون الكلام ولا الصياح، ثم اقتيد الجميع في عجلة إلى «دوار العمدة» الذي أوقظ في البكور، وحجز في غرفة من غرف دواره، ريثما يجتمع إليه مشايخ القرية الخمسة الذين جاء بهم العسكر من بيوتهم، فصنع بهم هناك ما صنع بالخفراء ...

وكانت القرية كلها قد استيقظت مروّعة، لأن صهيل الخيل وقعقعة السلاح، والهمسات الوجلة التي أخذت تتدسس إلى كل بيت ودرب، قد أفزعت الناس، وملأت قلوبهم رعبا.

إنها حملةٌ لجمع السلاح ! حملة من مائتي جندي يقودها ضابط تعهد للسلطات بجمع السلاحِ من قرى المديرية جميعا. واختار هذه الطريقة المروعة ليبدأ بها عمله، فلم تعلم القرية ماذا يبغي، ولا حتّى العمدة والمشايخ، إلا بعد أن صار المقبوض عليهم بالعشرات ومن بينهم مشايخ البلد الخمسة، وكلهم مكتوفو الأيدي بالحبال، تتلقاهم الأيدي بالصفع، والأرجل بالركل، دون أن يعلموا شيئاً عن حقيقة ما يراد بهم ... سوى أن الحكومة هنا، والحكومة تصنع هذا وسواه. فالذين عاصروا الحكم التركي لا يزال بعضهم يعيش.

• • •

كانت الساطات قد أصدرت أمراً عسكرياً بجمع السلاح، وعهدت في تنفيذه إلى رجال الإدارة، وهؤلاء عهدوا بتنفيذه إلى عُمَد البلاد كالمعتاد، فاجتمع بذلك عدد من قطع الأسلحة كالذي يجتمع كلما صدر أمر من هذا النوع، وهو عادة لا يساوي إلا نسبة صغيرة من الموجود في أيدي القرويين.

ولكي ندرك حقيقة الحالة يجب أن نعلم أن السلاح في القرية يملكه فريقان : الفريق الأول هم أصحاب الحقول والمواشي وخفراؤهم الخصوصيون الذين يسهرون على أموالهم من اللصوص، والفريق الثاني هم هؤلاء اللصوص الكثيرون الذين يجدون هذه

الحرفة – على ما فيها من مخاطر – أضمن للعيش من العمل المرهق في الحقول.

ونقص السلاح في أيدي أصحاب الحقول والمواشي معناه زيادة في ارتكاب الجرائم، والاعتداء على بيوتهم وحقولهم ومواشيهم، أما نقص السلاح في أيدي اللصوص فمعناه تجريدهم من بعض وسائل الرزق التي اختاروها لأنفسهم في الحياة!

كلا الفريقين إذن حريص على اقتناء السلاح. ولما كان العمدة يخشى أفراد الفريق الثاني تارة، وتتفق مصلحته الخاصة مع وجودهم تارة، فإن جمع السلاح في كل مرة كان ينصب على الفريق الأول بكل تأكيد.

ولكن الأمور لا تجري في القرية بالعنف، ولا حسب الأوامر الرسمية، إنما تجري حسب المواضعات العرفية. فالعمدة يعلم بالضبط كم قطعة من السلاح في كل بيت، وما نوع كل قطعة؛ فإذا طلبت الحكومة جمع السلاح، اتفق مع بعض من يملكونه على تقديم القطع القديمة منه، ولكي لا تكون المسألة مكشوفة، فإن بعض القطع الحديثة تزين المقدار المجموع، ويورد للسلطات كآخر ما استطاع العمدة أن يحصل عليه.

وطبيعي أن هذا كله لا يتم بالمجان، فلكل شيء ثمن، ولكل خدمة مقابل في الريف، فإذا خطر للسلطات أن ترسل بقوة وعلى رأسها ضابط لتولي هذا العمل، فالمرجع هو العمدة. وبإشارته

يتم كل شيء . وغداء فخم يحتوي على «أوزي» وبعض أزواج من الديكة، والدجاج والحمام، كفيل مع الوسائل الأخرى بتسوية كل شيء ، وإتمام المحاضر على خير ما يرام !

أما هذه الطريقة المبتكرة ، فقد تفتقت عنها عبقرية ذلك الضابط ، الذي تعهد للسلطات بجمع السلاح جمعاً حقيقياً من جميع قرى المديرية، فاتخذ هذا الأسلوب البارع المفاجيء، الذي روعت له القرية كلها في جنح الظلام .

* * *

ونعود إلى هؤلاء المشايخ الخمسة الذين أديرت أيديهم إلى ظهورهم، والصقت وجوههم بالحائط ، دون أن يعلموا شيئاً مما يطلب إليهم من مهام الحكومة التي اعتادوا أن يتلقوها بين الحين والحين، كجمع أنفار السخرة لإصلاح الجسور، ولتنقية الدودة من المزارع الكبيرة، أو قتل الجراد فيها، دون أن ينالوا على ذلك أجراً، لأن أجورهم – إن حسبت لهم أجور – تذهب إلى جيوب أخرى، وتؤخذ بصماتهم على أوراق لا يدرون ما هي، ثم ينصرفون وبحسبهم أنهم قد انصرفوا ناجين، بعد أن يكونوا قد كلفوا استحضار طعامهم معهم من بيوتهم، طوال مدة السخرة التي تنقص أو تزيد !

لم يفصح لهم أحد عن المهمة المطلوبة منهم في هذه المرة،

ولكن أفصحت لهم السياط التي أخذت تلهب ظهورهم من أيدي الجنود، عن أن اليوم ليس كالأيام. وإنما هو العذاب الأليم، الذي لا يملكون له رداً وهم مسجونون!

ثم أخذ الرصاص يدوي فوق رؤوسهم هم والخفراء الموثقون، والأهالي الذين اصطيدوا من مشارف القرية ومن طرقاتها حسبما اتفق حتى امتلأ بهم فناء الدوار!

هذا الرصاص للإرهاب، وبلبلة الأفكار، وإتلاف الأعصاب... وبينما هذا الفزع الأكبر يخيم عليهم، ويكاد يفقدهم صوابهم، أمر كل من المشايخ أن يملي على «الشاويشية» أسماء مائتي رأس أسرة، ممن يملكون سلاحاً في البلدة، وأن يعين نوع قطع السلاح التي يملكونها!

وإذا كان قد بقي فيهم إلى الآن عقل أو ذاكرة، فقد أخذ كل منهم يملي الأسماء. وكلما توقف برهة ليتذكر نزلت السياط على ظهره وجنبيه، فارتفعت حرارة العد، ومضى كالمجنون يملي الأسماء!

وانتهت العملية فإذا في يد كل جاويش بيان عن مائتي عائلة تحمل سلاحاً، وأمام كل اسم نوع القطع التي يملكها رأس هذه العائلة.

ولسنا في حاجة الى أن نقول: كيف كانت هذه البيانات، ولا مدى مطابقتها للواقع؛ فالشيخ المصلوب المجلود المهدد بالموت

من الرصاص المتطاير فوق رأسه ، لا يطلب إليه في هذه الحالة أن يتحرى شيئاً ... ولكننا نستطيع أن نؤكد أن أحداً من كبار الأشقياء المرهوبين لم يرد اسمه في هذه القائمة، وإذا كانت بعض الأسماء قد وردت فإنما هي لصغار الأشقياء الذين لا عصبية لهم في البلد ولا نفوذ !

وانتهت هذه المرحلة، ووقف المشايخ الخمسة يلهثون من التعب والفزع والألم ... أما العمدة فقد اشترى نفسه وكرامته من أول الأمر، لقد كان حصيفا .. رأى العين الحمراء، فسارع إلى وسيلة مضمونة لإرضاء الحكام، هدته إليها تجربة طويلة، وذكاء عملي، ومقدرة على جميع الوسائل والاتجاهات!

ثم بدأت المرحلة الثانية، فانطلق الخفراء مع الجنود وهم مكتوفو الأيدي، يجوسون معهم خلال القرية ليدلوهم على البيوت وليدقوا الأبواب يطلبون رؤوس العائلات، ويصروا على استحضار أكبرهم سناً، وكلما استحضروا منهم جماعة ذهبوا بهم إلى الدوار ...

وهناك يصنع بهؤلاء ما صنع من قبل بالمشايخ والخفراء قبل أن يسألوا شيئاً وقبل أن يجيبوا، حتى إذا أشبعوا ضرباً وترويعاً وإهانة صرح لهم عما يطلب منهم من قطع السلاح حسب البيانات.

فأما إذا صادف أن كانت القطع المطلوبة من أحدهم مطابقة لما عنده، فقد أحس بالفرج وبادر بالإقرار، وطلب أن يسمح له

بإحضارها ... ولكنه لم يكن يجاب إلى طلبه، إنما يستدعى أحد أبنائه أو أحد أفراد عائلته، فيشاهده هكذا، ثم يلقى هو الآخر بعض الصفعات واللكمات، ثم يتلقى الأمر منه أن يستحضر قطع السلاح المطلوبة، فيخرج ركضاً لاستحضارها، حتى إذا تمت معاينتها وظهرت مطابقتها للبيانات المكتوبة، أفرج عن الرجل وابنه أو قريبه، فخرجا لا يدريان النور من الظلام لشدة ما لقيا من اللكم والصفع، ومن الفزع والروع، وانصرف أهله لعلاج جروحه وكدماته، بالزيوت والمسكنات !.

وأما إذا صادف أن اختلفت البيانات عما عنده من السلاح، أو لم يكن لديه سلاح أصلا، فالويل له والثبور... يعاد جلده ولكمه وصفعه ما دام ينكر، أو يقر بسلاح آخر غير السلاح المطلوب. وفي الحالة الأخيرة كان يحضر السلاح الذي يملكه، ثم يظل يطالب بقطع السلاح الأخرى التي أملاها الشيخ، وهو في ذهول الروع والآلام !

عندئذ يضطر المسكين أن يعترف بما ليس عنده، وأن يطلب مهلة لإحضاره من مكمنه البعيد... وفي هذه المهلة ينطلق أبناؤه وأقاربه يبحثون عن قطعة سلاح مطابقة للبيانات، لشرائها حيث تكون، فإن لم يجدوها في القرية ركبوا أسرع دوابهم للبحث عنها في القرى المجاورة، فيسمح لهم الحراس بالخروج بحجة أنهم ذاهبون لاستحضار سلاحهم المودع عند أقاربهم في هذه البلاد، اطمئناناً إلى أن رأس الأسرة رهين لدى القوة، وعذابه مرهون بالوقت الذي يقضونه غائبين !

وعندما يوفقون إلى القطعة المطلوبة، يؤدون الثمن الذي يطلبه صاحبها مهما ارتفع. وكثيرون انتهزوا هذه الفرصة فبالغوا في أثمان القطع المطلوبة. كما أن الكثيرين أيضاً ظهرت أريحيتهم في إنقاذ المكرويين بأرخص الأسعار.

عندئذ يبتسم الضابط العبقري وهو يشاهد قطع السلاح المطلوبة تحضر بعد الإنكار، ويرد ذلك إلى عبقريته الفذة التي أرشدته إلى اختيار أقوم طريق!

...

في نهاية اليوم كانت الأسلحة المجموعة تصنف أكواما أكواماً فهذه بنادق، وهذه غدارات، وهذه مسدسات، وهذه طبنجات، وهذه سيوف، وهذه سكاكين كبيرة، وهذه بلط، وهذه مزاريق وكل «ماركة» من هذه الأنواع مرتبة وحدها. والضابط العظيم ينظر مرتاحاً منتفشا كالديك إلى انتصاره الكاسح على أولئك القرويين الملاعين...

وكان في كل بيت من بيوت القرية مناحة صامتة. فهذا مشجوج الرأس، وذلك مرضوض الأضلاع، وذاك ملتهب الجلد وهذا ممزق الأشداق... وكان نسوة وأطفال يغدون ويروحون بالزيوت وكمادات الماء الساخن والبارد، يسعفون بها المصابين.

وكان كثيرون من أهل القرية قد باعوا مواشيهم وطعام

آطفالهم، وحلى نسائهم ليشتروا بها قطع السلاح التي قيل إنها عندهم وهم لم يحملوا في حياتهم سلاحا.

لقد كان هؤلاء هم جماعة الفقراء الذين أكمل المشايخ بهم العدد وهم في مأمن من رد الجميل، إذ لا قوة لهم كالأشقياء، ولا جاه لهم كالأثرياء ! ! !

* * *

ويمر على هذه الحادثة أكثر من ربع قرن ! . والطفل لا يزال يذكرها كأنها حادث الأمس القريب. لقد فزع للهول كما فزع كل طفل وكل رجل وكل امرأة.

وفي أثناء هذه السنوات يسمع أن هذا الضابط الوحش قد رقي فصار في وقت من الأوقات وكيلا لمدير الأمن العام، اعترافاً بكفايته في صون الأمن وحفظ النظام فيكمن في نفسه شعور بالأسى الدفين.

ثم يسمع بعد ذلك أنه لاقى حتفه وهو يزاول شناعة من هذه الشناعات. فيحس كأن كابوساً ثقيلا قد رفع عن صدره وتنفس الصعداء !



الحصاد

ثلاثة مواسم في العام كان وجه القرية يتغير فيها، وكان يحيا في إبانها بنفس جديدة وحس جديد، هو وجميع أطفال القرية الذين ينتظرون هذه المواسم من العام إلى العام :

موسم اللوق. وموسم الحصاد. وموسم جني القطن.

والموسمان الثاني والثالث معروفان للجميع، فأما الموسم الأول فلا يعرفه إلا سكان الأراضي التي تروى بالحياض، تلك الاراضي التي تظل مكشوفة طوال العام، حتى يحين موعد الفيضان في (سبتمبر) و(اكتوبر) من كل عام، فتطلق مياه الفيضان، التي تعم الأرض الزراعية جميعاً، وتصبح لجة يرتفع فيها الماء إلى متر، ويصل في بعض المواضع إلى مترين أو أكثر... عندئذ تصبح القرى جزائر في وسط اللجة، لا يصل بعضها إلى بعض إلا «في صغار المراكب وخفاف القوارب» كما يقول عمرو بن العاص في رسالته التي كان الصبي يحفظها في المدرسة الأولية، ويجد مصداقها فيما تقع عليه عينه كل عام.

والحق أن منظر اللجة من الجبل إلى الجبل، منظر ساحر فريد فالوادي كله وعلى جانبيه التلان اللذان يسميهما الأهالي جبلين يستحيل إلى لجة متصلة ينفلت فيها النيل من عقاله. ويتخطى حواجز جسوره، ليعانق الأرض الحبيبة، التي يزورها مرة واحدة في العام.

فإذا آن موعد الوداع تناقص الفيضان يوماً بعد يوم، ونظر الناس إلى النيل نظرة المودع الآسف للوداع، حتى لقد سمع الطفل أحد القرويين السذج يتأمل النيل الهابط في حسرة، وقد خمد الموج العالي في اللجة، وانساب وانياً حسيراً ثم يقول: «مسكين. خلاص همد» وكان الرجل يقولها وكأنما يتحدث عن إنسان حي تربطه به آصرة القربى، وصلة العائلة، ومودة الأصدقاء!

وتصبح القرية ذات يوم فإذا اللجة منحسرة، وإذا الأرض السوداء مكشوفة، وفيها تلك الطبقة البنية التي تنبت الذهب في الوادي، على مساحات شاسعة، وإذا الأرض تطلب الحب، لتنبت للناس وللماشية طعام العام.

فإذا خرج الناس يغرسون أرجلهم في الطين، ويبذرون الحب الذي يحملونه على أكتافهم، ثم يغطونه بطبقة من الطين يجرفونها بمسحاة تسمى «اللوح»... فتلك هي عملية «اللوق» أحد المواسم الثلاثة في قرى الحياض.

* * *

كان زمام أطيان القرية أكبر من عدد الأيدي العاملة فيها، فهي قرية ثرية بالقياس إلى القرى المجاورة... ولم تكن الملكيات الكبيرة التي تشبه الإقطاع معهودة فيها. فأكبر ملكية زراعية لم تكن تتجاوز المائتي فدان. وقل أن يكون في القرية فرد أو بيت لا يملك قطعة أرض صغيرة أو كبيرة...

توزيع الأرض الزراعية على هذا النحو كان يقرب الفوارق بين الطبقات، ويخلق حالة من الأنفة الشخصية في صلات الناس بعضهم ببعض، فلم يكن هناك خدم بالمعنى المعروف في المدينة أو بعض الضياع والتفاتيش، حيث تهبط مرتبة الخادم إلى مرتبة الرقيق ... كان الخادم في القرية إنسانا فقيراً محتاجاً إلى العمل، ولكنه لا ينطق كلمة «سيدي» المقيتة، بل يستعيض عنها كلمة «عمي» لسيد البيت و «وامرأة عمي» لسيدته ... ثم هو يعمل في الدار أو في الحقل أو في تربية المواشي طوال اليوم، فإذا جن الليل عاد إلى بيته وأهله كما يعود أي سيد.

وكان لكل أسرة بيت مملوك، صغير أو كبير، ولكنه بيت. أما الأكواخ الطينية فلم تكن معروفة في القرية ... كان أكثر من نصف بيوتها مبنيا بالطوب الأحمر، وسائرها من اللبن. وكان معظم البيوت تتألف من طابقين أو ثلاثة، وبعضها يصل إلى الأربعة؛ وندر أن يتألف المنزل من طابق واحد حتى في بيوت الفقراء.

أما مستوى المعيشة فهو بالقياس إلى جهات أخرى كثيرة مستوى معقول – تبعاً لحسن توزيع الملكية الزراعية إلى حد ما – فأفقر بيت يذوق اللحم كل أسبوعين، وغالباً كل أسبوع. ومن لا يستطيع أن يشتري اللحم اشترى الأحشاء من الكروش إلى الأرجل إلى الرؤوس إلى القلوب إلى الكبد وما إليها – وهذه رخيصة جداً بالقياس إلى ثمن لحم البدن – والسمن كذلك معروف

في البيوت جميعا، يخلطه بعضهم بالدهن كما يخلطه القليل النادر من المسيحيين في القرية — بالزيت ولكنه يستخدم في الطعام على العموم .

والفاكهة من البطيخ والشمام والبلح والرمان والنبق والفثاء والخيار والجوافة والتفاح البلدي والقصب ... تدخل البيوت جميعاً مع اختلاف في المقادير.

وهكذا كانت القرية معروفة بالثراء كما عرفت بالرقي نظراً لبناء بيوتها، ونظافة سكانها بالقياس إلى القرى المجاورة — وإن تكن هذه النظافة حين ينظر إليها بعين المدينة تبدو قذارة مزعجة . ولكن كل شيء نسبي في هذه الحياة !

• • •

كانت الأيدي العاملة في القرية إذن أقل من مرافق العمل فيها، وبخاصة في هذه المواسم الثلاثة، لذلك كان يفد إليها أفواج من «الغُرْب» — جمع غريب — للعمل في مرافقها كل عام .

يفد هؤلاء الغرب من جهات قصية نائية : من قنا ومن أسوان ... من القرى الجرداء في هاتين المديريتين، حيث يضيق الوادي، ويزمه الجبلان في عنف وقسوة ثم يستقل بتلك الأراضي الضيقة بضعة أفراد يملكون الضياع والتفاتيش، ويدعون الآخرين للقحط والجدب والشقاء !

هؤلاء الغرب، هم الذين كانوا يصورون للقرية وأهلها قيمة ثرائها وثرائهم، ومبلغ النعمة التي أنعم الله بها عليهم ... كانوا «غرباً» لا بموطنهم النازح، ولكن بأشكالهم التي تختلف عن أشكال الناس في القرية، وبملابسهم — إن صح أنها ملابس — وبلسانهم الذي ينحرف انحرافاً بيناً، وبأغانيهم الحافلة بالشجن والشجى ... وبكل ملابسات حياتهم التي كانت تحيلهم في نظر سكان القرية «غرباً» لا يربطهم بهم إلا الدين ... أما القومية والجنس فقد انفرجت الشقة فيهما، فهما جنسان مختلفان!

كانوا يفدون جماعات جماعات، كل جماعة تسمى «كَـلّـة»، على رأس كل جماعة «ريّس» يقدمهم للعمل، ويتفق على أجورهم، ويلاحظ عملهم، ويأخذ في نظير هذا أجره كواحد منهم دون أن يعمل فيما يعملون.

وكان صاحبنا قد ألف «كلة» من هؤلاء، وألف رئيسها بصفة خاصة. كانت هذه الكلة تفد في كل موسم إلى دارهم، ويتراوح عددها بين عشرة وخمسة عشر ... هذه هي الكلة الأساسية التي يعتمد عليها والده في زراعته، ثم يضاف إليها في أيام الزحمة بعض الكلات الطارئة للعمل بضعة أيام، ثم تنفرد هذه الكلة بالعمل طول الموسم ... هي كلة البيت، فقد انعقدت الأواصر بينه وبينها ... رضيها ورضيته. وصارت لها علاقة شبه عائلية بالمنزل ومن فيه.

كانت أغاني هؤلاء الناس الشجية التي تقطر بالمرارة والأسى في رجولة وتجمل، تستجيش نفس الصبي الصغير وأحاسيسه، فيستمع

نفس الصبي الصغير و أحاسيسه ، فيستمع إليها شبه
مسحور ، و تجيش في نفسه الصغيرة انفعالات لا يدريها و لا يحاول التعبير عنها .. ولكنه ابدا
يحن إليها ، و ينتظرها من العام للعام ، و يستكثر
من إنشادها و يستزيد ، ان صمت القوم من التعب و الاعياء .. وهم في كل مرة يجيبونه إلى ما
يطلب ، فهو ابن سيد البيت الصغير ، ثم هو صديقهم
فردا فردا ، و ريسهم بوجه خاص .. فكل مطالبهم من الدار و أهله تتم عن طريقه ، وانه ليصر
على ان يجاب لهم كل طلب ، و يجادل عن مطالبهم
حين يناقش فيها أحد ، و يشعر بالراحة العظمى ، و هو يحمل لهم ما يطلبون من الدار ، و
الدنيا لا تكاد تسعه من الفرح ، بلتبية مطالب أصدقائه
الكبار!
ثم كان هو سكرتيرهم الخاص – بعد ان ذهب إلى المدرسة و " فك الخط " واصبح قادرا على ان
يكتب لهم رسائلهم إلى بلدتهم النائية ، و يقرأ لهم ما

يرد إليهم من رسائل تحدثهم عن أبنائهم و أهليهم هناك.
وكان هذا مبعث صداقة جديدة ، فأسرارهم جميعها – وهي أسرار ساذجة محدودة – كانت
مكشوفة له ، وكان موضع ثقتهم في استيداع هذه الأسرار
التي يطلع عليها في رسائلهم الذاهبة الآيبة ، ولعلهم كانوا يستريحون إلى طفولته البريئة ،
وهم يودعونه هذه الأسرار.
كان العشرة أو الاثنا عشرة أو الخمسة عشر يشتركون في رسالة واحدة يرسلونها للشيخ "

واحدة يرسلونها للشيخ «محمد أبو عُلَيْم» شيخ قرية «الكلح الغربية» ومأذونها أيضاً ...

كانت كل الأسماء غريبة على سمع الصبي، ولا عجب فهم «غرب» وكل ما يتعلق بهم غريب !

كانو يجمعون ما يريدون إرساله من النقود، ويكلفون الصبي أن يكتب به بياناً : اسم كل منهم وأمامه المبلغ الذي يريد إرساله، ثم يجمع «الحسبة» ويشتري لهم بها حوالة بريد باسم الشيخ محمد، ويكتب عن لسانهم إليه بتوزيع المبالغ حسب البيان على عائلاتهم هناك .

ولا يذكر أن المبلغ المتجمد قد تجاوز في مرة من المرات جنيهين !

كان أحدهم يرسل إلى أهله بالبريد الثمانية القروش والعشرة وعلى الأكثر العشرين ... وهو متهلل الوجه منطلق الأسارير، شاعر أنه بعث إلى من خلفهم هناك بما يسد العوز ويقيل العثرة، ويمد في حبل الحياة ! !

ومرة كان يخطر للصبي أن يتساءل : أهذا فقط ؟ وماذا تصنع هذه القروش ؟ فتجيبه من هؤلاء الناس ابتسامة فيها التجمل لحالهم البائسة، وفيها المشاشة لسذاجته البريئة ... ثم يجيبه واحد أو أكثر في لهجته الصعيدية الخاصة :

«يوه . أمال إيه يا بوي ؟ عم تحسب كل الناس زيك وزي

بيتك المرتاح» ؟ ـ أي أبيك الغني حيث يعبرون عن الغنى بالراحة ـ وهو أصح تعبير ـ ولكنه لم يكن يلمح في عيونهم ولا في لهجتهم شيئاً من الحسد، ولا من الحقد، لهذه الفوارق الهائلة التي يعبرون عنها في كلماتهم الساذجة!

أما نظام العمل والأجور في القرية فكان على النحو التالي:

يتراوح الأجر اليومي للعامل بين القرشين، والقرشين والنصف ـ حسب الغلاء والرخاء، وحسب الحاجة إلى الأيدي العاملة وقلتها أو كثرتها ـ أي حسب قانون العرض والطلب ـ ولكن هذا الأجر كان خارجاً عن المبيت والطعام، وبخاصة وجبة العشاء.

فأما الطعام فكان أصحاب الدار يزودون العمال به في المساء حتماً، وفي الوجبات الأخرى في بعض الأحيان. وكانت وجبة العشاء تتألف غالباً من ثريد اللحم، وهذا الثريد إما أن يصنع من المرقة البيضاء، وإما من المرقة المزودة بالبصل الناضج والكشك مع الخبز، فيكون طعاما دسما مغذيا شهيا، تتفاوت كمية الدسم فيه بتفاوت البيوت، وكرمها أو بخلها في الضيافة. فقد كانت القرية تعاملهم غالبا على أنهم ضيوف غرباء... والنبي أوصى بالغريب!

وبعض البيوت كان يزود «الغريب» بالإفطار، وبخاصة في موسم اللوق، لأن العمل في الطين، حيث تنغرز الأرجل إلى الركب، وحيث يحمل الغريب، كيلتين من الحب على كتفه ومع ذلك يمسح الطين باللوح ليغطي البذور طول النهار... لأن العمل

على هذا النحو يتعذر إلا مع طعام مغذ ... وهذا الإفطار يتألف غالباً من خبز القمح مع التمر والبصل ... أو من فطائر خاصة تسمى «المخمّر» مصنوعة من دقيق القمح والسمن واللبن بعد اختمار العجين... وهو طعام إضافي مع الخبز والتمر ... ولم يكن هذا ليقع إلا في بيوت الكرماء !

وكان صاحبنا يتعمد أن يصحو في الصباح الباكر ليحصل للغرب على أكبر كمية من هذا «المخمر» يدسها في حجره وجيوبه ثم يذهب بها إليهم فوق نصيبهم الذي أخذوه .

أما وجبة الغذاء فغالباً ما تكون على حساب العمال ... وهي مؤلفة غالباً من خبزهم الغليظ الجاف الذي حملوه معهم هذه المسافات الشاسعة في غرارات الخيش، أو في جلابيبهم القديمة التي ربطت أكمامها فصارت غرائر للزاد والمتاع . وقل أن يكون هذا المتاع إلا الزاد من ذلك الخبز الغليظ الجاف.

من ذلك الخبز، أو من الخبز الذي يشترونه من القرية مع البصل والملح، أو مع الملح وحده في أغلب الأحيان .

ومن أين يشترون الخبز من القرية ؟ إن بيع الخبز غير متعارف فيها . بل هو عار أشد عار . إن لكل عائلة بيتها، وفي هذا البيت فرنها البلدي الخاص ... وهي تشتري الغلة — من الذرة غالباً — فتغربلها وتنقيها وتطحنها ... تغربلها بالغرابيل اليدوية الصغيرة،

يجتمع نسوة البيت مع من يتقدم لمساعدتهن من الجارات، فيأخذ فريق منهن في الغربلة، حتى تنظف الغلة من الطين الغليظ والمواد الغريبة ... ويأخذ فريق منهن في «التنقية» وهي تنظيف الغلة من الطين الصغير ومن بقية المواد التي لم يحجزها الغربال ويكون ذلك يوماً مشهوداً من أيام العائلة، كل من في البيت يشتغل فيه فضلا على مساعدة الجيران. ثم تطحن ... ومن هذا الدقيق يصنع الخبز بإضافة شيء من دقيق الحلبة إليه ليتماسك وينال شيئاً من الطعم الخاص المقبول ... فلا حاجة إذن إلى سوق الخبز، لأنه لا يشتري الخبز إلا الغرباء! وحتى هؤلاء لو طلبوه من البيوت لأعطي لهم. فليس عار بعد بيع الخبز وشرائه كما يصنعون في البندر القريب ، الذي تلوك سيرته الألسن لأنه يبيع الخبز للناس!

ولكن إذا كان الخبز لا يباع في السوق، فإنه عملة معترف بها في هذه السوق!!! ليست العملة في القرية هي البنكنوت ولا الأوراق المالية، ولا النقود الفضية والمعدنية فحسب، إنما هنالك أنواع أخرى من العملة في مقدمتها ... «البتاو» والبتاو هو خبز الذرة الخالصة أو الذرة المخلوطة بالقمح، تمييزاً له عن خبز القمح الخالص المسمى بالرغيف، إلا أن يصنع على هيئة «البتاو» في بعض الأحيان!

وإذا كان الأولاد في بيوت الفقراء وبعض الأوساط لا يتناولون نفقات يومية غالباً. فليس معنى هذا أنهم لا ينفقون. فهذا البتاو عملة صغيرة معترف بها في السوق. يسحب الطفل «البتاو»

وينطلق بها إلى السويقة، فيشتري بها عدداً من «طورات» البلح، كما يشتري بها الرمانة أو كمية النبق، أو قطعة من عود القصب تسمى «دقلة» أو ما شاء من هذه الفاكهة الصغيرة ؛ كما ينطلق بها إلى بائع الترمس والبليلة – أي القمح المبلول بالماء والملح – والبتاو في جميع هذه الميادين عملة مسعرة، يختلف سعرها هبوطاً وصعوداً حسب سعر الغلال عامة، وحسب حجمها ونسبة خلطها، وجودة صنعها كذلك و «لبتاو» بعض البيوت شهرة خاصة في هذا كله، كعملة بعض الدول المضمونة ! فيكون لها اعتبارها وقيمتها في السوق، ويتسابق الباعة إلى حاملها، ويجزونه عنها بكمية مغرية من سلعهم الرخيصة !

وليس «البتاو» وحده هو العملة الإضافية في سوق القرية فهناك أنواع أخرى من العملة غير الرسمية : هي الغلال، والنخالة، و «زبل» الدجاج أو الحمام اي زرقه .. فهذه كلها يشترى بملء الجيب منها . أو ملء طاقية الطفل، أو ملء إناء معين، كميات من الفاكهة ومن البصل ومن الفجل، ومن كل شيء يعرض في «السويقة» أو في الدكاكين !

وليس الأطفال وحدهم هم الذين يتعاملون بهذه العملة، بل الكبار أيضاً .. فليست النقود في الحقيقة إلا عملة إضافية بالقياس إلى العملات السائدة في القرية، ولا سيما في شراء الأشياء الصغيرة !

من هذا الخبز الذي يتجمع عند الباعة يشتري «الغرب» طعامهم إذا أرادوا الشراء، ولو قد طلبوا الخبز من القرية لأعطتهم بلا

ثمن كما اسلفنا، ولكن هذه شحاذة وتسول ، وهم لم يكونوا شحاذين ولا متسولين ... إنما هم قوم أعزاء شرفاء .

* * *

ثم يقع الحادث الذي لن ينساه صاحبنا ما عاش .

كان بيته يقدم «للكلة» الطعام .. وكانت والدته تقوم على إعداده بنفسها كما تقوم على طعام الأسرة، رغبة في الثواب من الله حين تصنع بيدها طعام الغرباء .. وكان والده يشرف بنفسه على شراء اللحم الذي يقدم إليهم من دكان القصاب، ويشتريه من نفس النوع الذي يختاره للعائلة . لأن القصابين كانوا ينتهزون هذه الفرصة ليذبحوا الذبائح الهزيلة والشائخة، ويرخصوا ثمنها قليلا، فيقبل عليها الكثيرون ممن يريدون التوفير ... و«الغُرب» لا يجدون في أي صنف من اللحم ما يعاب !

وكانت المقادير التي تقدم لهذه الكلة مقادير وافية من جميع أنواع الطعام، من الخبز إلى اللحم إلى الإدام .

لذلك كانت مفاجأة لوالده حينما جاء رئيس الكلة يرجوه في أن يسمح لهم بتناول الطعام على حسابهم في المساء، في نظير أن تزاد أجورهم نصف قرش مقابل العشاء .

نصف قرش ؟ أهذا الطعام كله لا يساوي في نظرهم نصف

قرش ؟ وبدا عليه الغضب لسوء تقديرهم لما يقدم لهم من الإكرام ولكن رئيس الكلة بادر بإزالة ما علق بنفسه، فأفهمه أن النقود أصلح لهم ولعائلاتهم، أما الطعام فكل أكل طعام !

ويبدو أن والده كان لا يزال مغضباً ، فترك مناقشته وقبل الغرض بلا كلام.

وظلوا أربعة أيام يأكلون في خارج البيت، ثم يأوون إليه للنوم، دون أن يعرف أهل البيت عن حياتهم المعيشية شيئاً... وفي اليوم الخامس كانوا قد انصرفوا مبكرين لانتهاء عملهم في أحد الحقول، استعداداً للبدء في حقل جديد عند الصباح.

في هذا اليوم سأل رئيس الكلة أهل البيت عن طريق صديقهم الصبي : أن يعيروهم إناء نحاسيًّا للطبخ «حلة» فأجيب طلبهم، ثم استأذنوا في استخدام «كانون» البيت بالدور الأسفل فأذن لهم. (وهذا الكانون هو صفان من اللبن يسدان من ناحية بصف ثالث وتبقى الناحية الأخرى مفتوحة. ويوضع الإناء فوق الأرجل الثلاث بينما يزج بالوقود من الناحية المفتوحة وتشعل فيه النار حتى ينضج الطعام أو يسخن الماء... ذلك أن الفحم نادر الاستعمال ومواقد البترول قليلة في القرية، والاعتقاد كذلك أن الطعام الذي ينضج ببطء على وقود «الجلة» وأعواد الذرة وحطب القطن يكون أجود من الطعام الذي ينضج سريعاً على موقد البترول)

وأوقد القوم النار ووضعوا ماء في الإناء، فهم يريدون أن

يطبخوا ... ثم طلبوا شيئاً من الملوخية الجافة وقليلا من الملح، فأجيبوا ...

ولم يخامر الشك أهل البيت في أن القوم قد استحضروا كمية من اللحم وكمية من السمن وقليلا من البصل أو الثوم ... وإلا لأعاروهم السمن والبصل والثوم أيضا .

ولكن ماذا ؟

ها هوذا الماء يغلي، فيلقون فيه الملح والملوخية، ثم يتناول أحدهم عودا من أعواد الذرة الجافة، فيجرده من اللحاء، ويحرك به الطعام في الإناء هنيهة، ثم ينزله من فوق النار، وإذا الأيدي جميعاً تتسابق إلى الغرف من الإناء النحاسي الكبير بإناء فخاري صغير يسمى «مقلاية» ــ مشتقة من القلي ــ وها هوذا بعضهم يشرب الملوخية في نهم ظاهر، وبعضهم ينتحي بإنائه ناحية ثم يفت فيه الخبز الغليظ الجاف، ويتناوله بيده في نهم غليظ ...

ولم يستطع الصبي أن يصدق عينيه ... لقد كان حاضراً طوال العملية . ولكنه مع ذلك لا يصدق ؛ أطعام بلا لحم ولا سمن ولا ثوم ولا بصل ولا حتى فلفل . ثم يستطيع ناس أن يطعموه، فضلا على أن يقبلوا عليه هذا الإقبال ؟

وطار إلى الطابق الثاني حيث أبوه وأمه وأختاه، فأنهى إليهم الخبر، كأنما يروي أسطورة غير قابلة للتصديق ... وبالفعل كانت عندهم أسطورة . فإن أحداً لم يشك في أنه يمزح مزحة كبرى .

ولكن ها هوذا يقسم، فتزداد حيرة الجميع بين الأسطورة الغريبة وهذا القسم المكرر الأكيد. ثم يراجعونه: لعله لم يلق باله إلى اللحم والسمن. لعل القوم يصنعون طعامهم بطريقة أخرى يختلف ترتيبها عن طريقة أهل البيت، فهو لم ينتبه إلى إلقاء أشياء الطبخ في مواعيدها ...

أما هو فلا يكذب نظره ... إنما يرجو أباه أن يرافقه ليسألهم أمامه، وليعلم الخبر اليقين. ومع أن والده كان وقوراً رزيناً، فإن غرابة الحادثة قد استخفته، فإذا هو يتبع الطفل الصغير الذي سبقه في هبوط الدرج بسرعة وعجلة، لإثبات هذا الأمر الخطير.

... وعلم الوالد حقيقة النبإ، فإذا هو يفرك يديه من العجب والحيرة في أمر هؤلاء الناس، وإذا هو يعلن إليهم أنهم منذ الغد سيأكلون في الدار أكلتهم المعروفة مع بقاء نصف القرش الذي طلبوه ... وإذا بألسنة الجميع تتوجه إلى الله بالدعاء، وأكفهم ترتفع للثناء ... على هذا الرجل العظيم السخاء!

وانصرف الوالد قبل أن يستكمل القوم دعاءهم له بالسعادة وطول العمر، ودعاءهم لطفله وأبنائه بالحياة والصحة ... أما الصبي فلم ينصرف. إن أمر أصدقائه ليكرثه، وإنه لشديد الرغبة في أن يعرف شيئاً أكثر عن حياتهم الحقيقية، ولا سيما أنه كان يحبس فضوله عند ارسالهم للمبالغ الصغيرة، فيكتفي بسؤال واحد

كان يسمع له جواباً واحداً في كل مرة ... فلم يعد يسأل هذا السؤال .

ولقد علم في هذه الليلة أشياء كثيرة ... علم أن اللحم في حياة القوم فاكهة نادرة يذوقونها في عيد الأضحى من العام إلى العام . وعلم أن السمن شيء غير معترف به في عالمهم ، فالزيت — وبخاصة زيت الخس الذي يكثر في جهاتهم بعض الشيء — يغني عن السمن في الطعام . وعلم أن القمح مادة لا علاقة لهم بها ، ففي الذرة الكفاية ، إذا تحنن الله عليهم ، فرزقهم بخبز الذرة الغليظ الذي يحملونه الآن . وعلم أن السكر مادة يسمعون عنها في بيوت أثريائهم ... مثل الشيخ «محمد عليم» هذا الذي يأمنونه على أموالهم وعائلاتهم في غيبتهم ... فلقد بلغ من ثرائه ومن نعمة الله عليه ، أنه قد ينفق في كل شهر «رأسا» من السكر في منزله ؛ وفي قهوة الضيفان الكثار الذين يؤمون هذه الدار ! . وعلم أن هذه القروش القليلة التي يرسلونها إلى أهليهم خمس أو ست مرات في العام ، هي دخلهم العائلي طوال العام ، ينتظرونه بفارغ الصبر ، اللهم إلا أولئك الذين «يبَحّرون» أي يذهبون إلى القاهرة وسواها ليعملوا «فعلة» فهؤلاء أكثر إيرادا ؛ لأن الواحد منهم قد يرسل إلى عائلته بالجنيه وبالجنيهين على مدار السنة ! .

وعلم أشياء وأشياء ، لم يتبين عمق آثارها في نفسه ، وقسوة وقعها على حسه ، إلا وهو يسترجعها الآن في الحين بعد الحين ، فيشعر في قرارة نفسه بالخجل ، ويحس لنفسه ولشعبه بالازدراء :

إنه سارق ... سارق لهؤلاء «الغرب» وأمثالهم من الملايين الكثيرة التي تنبت الذهب في الوادي. وتجوع ... سارق ... ! ولو كان في الوادي قانون عادل لقاده إلى السجن قبل أولئك الكثيرين الذين يحسبهم القانون لصوصاً ومجرمين !

هذا هو الشعور الذي ظل يعاوده أبدا، كلما جلس يتناول طعاما دسما، أو فاكهة لذيذة، أو حلوى أنيقة، أو يتمتع بأيسر مباهج الحياة بين ملايين المحرومين !



أحزان الريف



عرف قلبه الصغير مرارة الحزن قبل الأوان ... كان ذلك يوم أن عاد من المدرسة، ودخل على أمه كما يدخل فإذا هي «تعدّد» أي تتحزن بصوت مسموع، مرددة بصوت خافت منظومة من تلك المنظومات الكثيرة التي تتخذ «للعديد» والدموع تسح من مآقيها في غزارة، وهي تغالبها - حين شاهدته - فلا تستطيع.

كانت هذه أول مرة رآها تبكي، ولم تكن سنه تجاوز العاشرة. لقد رآها قبل ذلك مكتئبة، ولكنه ما كاد يسألها: ما لك يا أمي؟ حتى تتكلف البشاشة، وتجيبه وهي تضمه إلى صدرها في حنان: لا شيء! لا شيء. متعبة قليلا ...

أما في هذه المرة فهي تبكي بكاء صريحا ... هذه دموعها تنحدر من مآقيها انحدارا، وهذه هي لا تتكلف البشاشة، ولا تداري الألم. وهذا هو يقف مشدوها على قيد خطوات منها كأنما يتوجس شراً فلا ينبس ببنت شفة، ولكنه يقف تجاهها واجماً ... وتنتبه هي لوجوده ووقفته مأخوذاً أمامها فتغالب دموعها المنهلة فلا تستطيع، ثم تتماسك وتدعوه إليها فيرتمي في حضنها، ويدفن وجهه في صدرها، وقد انتقل إلى قلبه الصغير سواد أشجانها، فإذا هو يبكي دون أن يعرف لبكائه سبباً ولا لبكائها!.

وهنا يستيقظ قلب الأم ولهفتها على ابنها الوحيد ... كان

وحيدها إلى ذلك الحين، وبجانبه أختان إحداهما تكبره بثلاثة أعوام، والأخرى تصغره بمثلها ... ولم تكن بعد قد رزقت بأخيه الصغير ولا بشقيقته الأخريين فيصيروا أسرة لا يخشى عليها النفاذ ! . وإذا هي تربت عليه وتضمه إليها في حنو، وهو مغرق في بكائه ... فلما طلبت إليه أن يسكت سألها ألا تبكي مرة أخرى، فقالت تهدىء من روعه ـ ولعلها تهدىء من روعها :

ـ لن أبكي يا بني ما دمت تعيش ... البركة فيك أنت . وحياتكم ـ تعنيه وأختيه ـ أنتم وأبيكم عندي كفاية ! .

وسكت الصبي، وتطلع إلى وجهها فاذا الدموع قد جفت، وإذا هي ناشطة مستبشرة حقا، فأعداه استبشارها، وتشجع على سؤالها ما لك يا أمي ؟ .

ونظرت إليه في عينيه، وكأنما أحست أن طفلها قد صار رجلا، وأنه قد آن الأوان لأن تطالعه ببعض أشجانها، فقالت له :

ـ أقول لك يا فلان، وتعدني أن تكون رجلا ؟

وهزته كلمة «رجل» هذه، فلقد كان شديد التوقان لأن يكبر سريعاً ـ وقال :

ـ بكل تأكيد :

ـ قالت : لقد باع أبوك اليوم قطعة أرض .

ولم يكن إلى ذلك الحين يدري معنى هذا على وجه التحقيق ... كان قد بعث به إلى المدرسة صغيرا واستغرقته حياة المدرسة، ولم تشغل باله أحوال الزراعة والفلاحة، كما تشغل من هم في مثل هذه السن في القرية، حتى ليدركون معنى هذه الجملة لو قيلت لواحد منهم ! .

وبدا عليه شيء من التساؤل عن معنى هذا الخبر وعلاقته بالبكاء، فأردفت أمه تقول :

— ومعنى هذا أن غيطنا ينقص. وقد نقص من قبل مرات بمثل هذا البيع. فأبوك ما بين عام وآخر يبيع مقداراً، من الطين... وإذا استمرت الحالة هكذا فسيأتي يوم لا يكون لنا أرض، ولا غيط، ولا بيت، ولا بهائم، ولا شيء من هذا كله الذي تراه.

هنا كان قد فهم — أو أحس عظم الكارثة التي تتهدده — تتهدده هو شخصياً.. فهل سيفقد هذا «الغيط» الذي يذهب إليه في يوم الجمعة، فيجري ويقفز ويمرح ويعبث بمن يشتغلون فيه، ومن يسرحون بهائمهم هناك ؟،.. بهائمهم ! وهل سيفقد هذه البهائم ؟ وبخاصة هل سيفقد هذه البقرة التي يعتز بها، والتي تتغير مواشيهم ما تتغير وهي باقية لا يبيعونها لما لها من ميزات خاصة في إدرار اللبن، وكثرة الزبد ... وأهم من ذلك : الصداقة الوثيقة التي تربطه بها كما تربط أختيه ووالدته، وقد عاصرت نشأته ونشأة أختيه تقريباً فأصبحت «شخصية» عزيزة عليه وعلى جميع من في الدار ؟.

ثم البيت ... هل يفقد هذا البيت ؟... وهنا أحس له بإعزاز لم يشعر بمثله قط. بيتهم الفسيح الجميل . والبئر الخاصة به ... تلك البئر التي تستقي منها دوابهم ودواب الشارع كله، والتي يزهى بوجودها في دارهم واضطرار الناس لأن يتملقوهم حين يفدون ببهائمهم على حوضها، ويدللوه هو بصفة خاصة، وهو يستعرضهم مع مواشيهم. ويحس بنشوة عظمى لتفرد منزلهم بهذه الميزة الكبيرة ... ميزة أن بقرتهم ودوابهم لا تخرج من البيت لتشرب كما تخرج دواب الناس ! ...

ثم «رواق الفرن» تلك الحجرة الخاصة بالفرن في الدور الثاني . وهي غير الفرن التي بالدور الأول ... وهذه ميزة أخرى فللناس فرن واحدة لضيق بيوتهم . أما بيتهم هذا المهدد بالفقدان فيه فرنان : واحدة تستعمل في الشتاء للدفء، وهي بالدور الأول وواحدة تستخدم لمجرد الخبز صيفاً وهي في هذه الحجرة أو في هذا الرواق المثقوب سقفه فوق الفرن لإخراج الدخان، والمقصوصة حائطه لنفس الغرض، مما كان يتيح له ولشقيقته الكبيرة أن يقفزا من هذه الحائط الناقصة من السطح وإليه، بينما أختهما الصغيرة تحاول فلا تستطيع، فيعبثان بها قليلا وهي تصرخ . ثم يتلقفانها بينهما من هنا ومن هناك !

ثم «المحاش» وهو حجرة طويلة جداً في جانب من البيت غير مسقوفة، يخزن فيها التبن وأعواد الذرة الجافة وحطب القطن، كيلا تتعرض للحريق إن خزنت فوق السطوح على عادة القرية — لأن انفساح الملك قد هيأ لبيتهم هذه الميزة — هذا المحاش الذي

كان يرتفع التبن فيه عند دخوله إلى قرب سطح الدور الأول، فيسهل عليه وعلى أخته الكبرى أن يثبا من السطح فوق هذا التبن دون أن يتعرضا لخطر. ثم يجريا فيصعدا سلم البيت من الناحية الأخرى للقفز من جديد وهما يتسابقان.

ثم الدرب الخاص أمام البيت مرتعه مع لداته من الصغار يلعبون فيه الكرة، وشتى الألعاب القروية الساذجة ...

وظل خياله يستعرض عشرات من هذه الصور الحبيبة في لمحة خاطفة، ويود لو يضم يديه على كل صورة منها فيمسك بها خوف الإفلات ...

أهذا كله مهدد بالضياع؟ ولم يصدق شيئاً من هذا الذي يقال. فالتفت إلى أمه شبه مغضب. وهو يقول:

– ولكن لماذا يبيع أبي هذا الطين؟.

قالت:

– لأنه كان عليه نقود للناس ولا بد أن يردها لهم.

ولم يكن هذا جواباً شافياً. فلماذا يكون عليه نقود للناس؟ وكيف يكون ذلك وهو يرى النقود دائماً في كيسه الأبيض الطويل كثيرة، وهو يشتري كل شيء من هذه النقود؟

ولعلها أدركت في هذه اللحظة أنها أخطأت واستعجلت ميعاد

الإفضاء إلى الطفل الصغير، فأرادت أن تنهي المناقشة وتصرفه عنها ... ولكنه أصر على أن يعرف، فتبسطت معه في الشرح، حتى استطاع أن يفهم أن والده ينفق في كل عام أكثر من إيراده، فلا بد أن يؤدي هذا الفرق لبيع بعض الأطيان!

وهنا أدرك المسألة بحذافيرها، وأحس بحقيقة الخطر، ولكن ذهنه الصغير لم يكن ليحتمل امتداد التخيل حتى يصل إلى ذلك اليوم البعيد ... قال:

— لا يا أمي. لن نبيع بيتنا ولا حقلنا. ولا بهائمنا هذه. ولن نبيع بقرتنا الكبيرة!. وكأنما استروحت الأم ريح الأمل في كلمات طفلها الساذجة ... قالت:

— ربنا يسمع منك يا بني.

ثم ضمته إليها. ثم ابعدته عنها قليلا وجعلت عينيها في عينيه، وجمعت في نبرات صوتها كل حرارة إيمانها وهي تقول:

— اسمع يا فلان. أنت عليك أن ترجع ما يفقده أبوك!

ومع أن حرارة يقينها قد نفذت إلى قلبه، إلا أنه ظل لا يفهم كيف يستطيع — وهو بين يديها — أن يقوم بهذا العمل العجيب. فبدت في نظراته كل معاني الاستفسار!

قالت:

— حين تكبر ستذهب إلى مصر — عند خالك — فتتعلم هناك،

وتصبح «أفندي» ويكون لك مرتب ... وعندئذ تتذكر أن أطياننا في البلد تباع بسبب إسراف أبيك في النفقات، فتحرص على النقود، ولا تبذر كأخيك الأكبر أيضاً، بل تنفق في الضروري فقط ... وعندئذ يكون في جيبك نقود كثيرة فتشتري بها هذه الأطيان التي نفقدها ...

وبينما كانت هي مندفعة في آمالها العذبة، التي تنوطها بطفلها الصغير، كان خياله هو سابحاً في السفر إلى مصر، وفي «الأفندي» الذي سيكونه فلم يتابع بقية الحديث ...

ولكنه تنبه فجأة، وعلا وجهه الوجوم وهي تستطرد فتقول :

ـ ويجب ألا تكون مسرفا كأخوالك أيضاً. فهم مثل أبيك في الإسراف أو أكثر... وها أنت ذا تعرف أنهم باعوا أطيانهم الواسعة وبيوتهم الكثيرة ـ إلا البيت الواحد الصغير.

هنا تنبه، فلقد كانت هذه ذكرى أليمة في نفسه ... إنه لم يشهد مبدأ المأساة، ولكنه كان يشعر بها أينما سار في القرية، فهو يسمعها من أفواه النسوة وبعض الرجال، كما يسمعها من أمه مراراً وتكرارا في مرارة عميقة. لقد كان جده لوالدته واسع الثراء، فما كاد أخواله الأربعة يكبرون ويذهب اثنان منهم إلى الأزهر ويبقى اثنان للفلاحة، حتى أسرف الجميع إسرافا شديداً، وما كاد جده يموت حتى بعثروا الثروة يميناً وشمالا حتى انتهت عن آخرها ... وعاد أحسنهم حالا هو خاله هذا الذي يشتغل بالتدريس وبالصحافة في القاهرة،

والذي تعيش معه جدته، التي يحبها إلى درجة العبادة ويراها في فترات متباعدة .

فحينما صورت له أمه هذا المصير الذي ينتظر بيت أبيه ــ لو سارت الحال على هذا المنوال ــ استطاع أن يدرك عمق الهاوية، واندست في نفسه أول بذرة حقيقية للمسئولية . وعرف لماذا كانت أمه دائماً تستعجل تعليمه، ولماذا كانت حريصة على أن يتعلم في المدرسة الأولية لا في الكتاب .

إن عليه أن يدرك البناء قبل أن ينهار .

• • •

كثيرات من نساء القرية كن يحملن في نفوسهن أشجاناً كأشجان أمه ؛ ومخاوف كمخاوفها ؛ وإن لم يكن لهن أمل كهذا الأمل في أطفالهن الصغار، لأنه ليس لهن أخ في القاهرة . والقاهرة دائماً في خيال القرويين تقترن بالفرج الواسع ، والانقلاب من حال إلى حال !

ذلك أن الثروات في القرية محدودة عند الكثير من الأسر المتوسطة، وهي تتوزع بالميراث جيلا بعد جيل، فما تكاد تصل إلى الجيل الثالث أو الرابع حتى تكون قد تضاءلت . ما لم يجد في الأمر جديد . وتجد الأسر الطيبة نفسها في حالة من التدهور المالي ــ وأحيانا الفقر المدقع والخراب الكئيب لبيوت كانت عامرة مطروقة وتظل هذه ذكرى دامية في نفس كل فرد، وعند النسوة بشكل

حاص، فيطغى الشجن على البيت، ويخيم عليه الظلام، ما لم يبزغ فجر أمل جديد ...

وأحزان الريف راكدة طويلة، لأن الزمن هناك بطيء الخطا، متماثل الحركات... فالموت الذي يعدو على أفراد الأسرة واحداً بعد واحد، يحمل دائماً معه ظلا أسود كثيفاً يجثم على كل صدر، ويبدو في كل مظهر ... ويحتفظ الريفيون طويلا بأحزانهم لأنها تغذي نفوسهم التي تظللها الكآبة من كل جانب :

كآبة الفقر بعد الغنى – وهي مريرة – وكآبة الفقر الأصيل الموروث – وهي أليمة – وكآبة الموت وذكرياته. والوفيات في الريف كثيرة ودائمة يعوضها النسل الكثير. ولكن كل وفاة هي ذكرى دائمة في قلب أم أو زوج أو شقيقة، تظل تنضح بالأسى كلما جمعها مأتم، أو لمزها الزمان بحادث. فتلجأ إلى «العديد» الشجي الكئيب.

وحين يجد الرجال أنفسهم في الحقل يستطيعون أن ينسوا، وهذا الضياء المشرق هناك يغمر نفوسهم فيجلوها. وتفتح الزرع بعد اسوداد الأرض ينبت في نفوسهم آمالا خفية لا تدركها سذاجتهم العميقة ... ولكن النساء اللواتي لا يغادرن الدور غالبا – ما عدا الفقيرات جدا اللواتي يذهبن إلى الحقول نادراً في الصعيد – هؤلاء النساء ما الذي ينسيهن الأحزان، والبيوت مظلمة، وقاعاتها كئيبة، وبخاصة حين يجن الليل، فلا ينير البيوت إلا تلك المصابيح الخافتة، مصابيح البترول الصغيرة، تريق نورها الضئيل الباهت على

الجدران السوداء، فتتراقص ظلالهم فوقها كالأشباح، ويجثم على البيت ومن فيه شعور كامد من الشجن والأسى.

ثم الألوان القاتمة في اللباس. فالعروس وحدها في الأعوام الأولى هي التي يقبل منها الوسط أن تتزين، وترتدي الملابس البهيجة وأن تبتهج أيضاً. فإذا انقضت عليها سنوات، وتقدمت بها السن فوصلت إلى الثلاثين، وجب عليها أن تحتشم، فإذا ظلت على زينتها وملابسها البهيجة ومرحها النفسي لاكت الألسن سيرتها، وكانت موضع النقد من كل جانب. في السن التي تبدأ زميلتها في المدينة حياتها الحقيقية البهيجة.

وللعنصر الاقتصادي دخل في هذا كله، فالملابس البهيجة تكلف، والنظافة الدائمة تكلف. والثياب القاتمة تحتمل ولا يبدو عليها الوسخ، فهي لذلك أوفر ... ولكن القوم لا يحبون أن يعترفوا بأن العوامل الاقتصادية هي التي تحدد لهم طريقة السلوك. فيحيلوها مسألة خلقية. وإذا البنت أو المرأة التي لا تتزين ولا تتنظف، هي النموذج الخلقي المطلوب!

• • •

شهر واحد في العام كانت القرية تبتهج فيه وتنسى أحزانها ... ذلك شهر رمضان. والسر في هذا الابتهاج هو: أولا النور. النور الذي ينتشر في كثير من البيوت التي تسهر أي تفتح أبوابها للزيارات ويقرأ فيها المقرئون القرآن طوال شهر رمضان، ثم

المصابيح التي تعلق على بعض الأبواب فيهتدي بها المارة الكثيرون، الذين يسهرون ويتأخرون في السهر آمنين من «العفاريت» لأنها مقيدة في شهر رمضان كعهدها القديم مع النبي سليمان !

وليس للنور وحده تبتهج القرية في رمضان، ولكن كذلك للطعام !

إن القرية سواء في ذلك فقراؤها وأغنياؤها تستعد لهذا الشهر المبارك بالغذاء الخاص الممتاز في الفطور والسحور، وتطبخ كل يوم على وجه التقريب، وتأكل اللحم والفاكهة بكميات أوفر، وتبدو فيها حركة واضحة في الاستعداد لهذا كله. وحين تجد القرية النور والغذاء في شهر رمضان تنسى أحزانها الدفينة، وتبتهج للحياة في نجوة من الحرمان والظلام !

وفي المواسم والأعياد تتكرر هذه الظاهرة ولا سيما في المولد النبوي لتوافر مادتي الفرح الأصيلتين، ثم تخمد الحركة الطارئة، وترتد القرية إلى ظلامها الدامس، وإلى حرمانها الموروث وإلى أحزانها التقليدية، فتجتر هذه الأحزان . التي تسميها : «أغلاب الزمان»

أغلاب الزمان : غلب الفقر، وغلب الحرمان... ثم غلب الجور من الحكام. فالريفي مرهق أبداً بالحكام : مرهق بالضريبة على أطيانه القليلة، ومرهق بمطالب العمدة التي لا تنتهي تلبية لأوامر الحكومة : تذاكر الجمعية الخيرية التي تجبى أثمانها من أناس هم

أحوج ما يكونون إلى أعانة الجمعية الخيرية، وتذاكر الهلال الأحمر، وتذاكر الإسعاف ... ثم سخرة الجسور، وسخرة تنقية الدودة في مزارع الأثرياء، وتفاتيشهم خارج القرية، ومكافحة الجراد ... وما لا يحصى من هذه «المأموريات» التي يحس القروي فيها أنه سائمة أو «حمار شغل» على الدوام.

ثم غلب الكد المتواصل في الأرض والزرع. لتوفير قوته من الذرة — ويا ليته يجدها على مدار العام.

ثم غلب التقاليد — وبخاصة على المرأة — التي لا ترتفع في نظر الرجل عن السلعة .. فإذا كان بيت أهلها لا يزال مفتوحاً فهي محترمة إلى حد ما، لأن هناك مالاً ينتظرها. أما إذا خرب بيت أهلها — وكثير من البيوت يخرب كما أسلفنا — فهنا تعاني من الذل والتعيير ما يحيل حياتها ظلاماً في ظلام.

• • •

بين هذا الحزن الجاثم الكئيب. وبين «أغلاب الزمان». كانت تنفرج ثنايا الزمن عن ابتسامة واحدة: هم هؤلاء الأطفال الذين يمرحون ويلعبون فترة طويلة من العام. طلقاء من العمل والكد إلى سن معينة كانت تتجاوز العاشرة.

كان هذا قبل ربع قرن. فلما عاد إلى القرية الحبيبة. يتفقدها

ويسأل فيما يسأل عن مرح الصغار ... قيل له : لقد انتهى كل شيء لقد انطفأت هذه البسمة الأخيرة في وجه الزمان الكئيب . لقد اصبحت المعيشة عسرة شاقة، فلم تعد تسمح للأطفال والصبية باللعب والضحك والمرح ... إنهم يندبون للعمل في الحقول منذ السابعة أو السادسة ـ ولقد اختفت من القرية مجتمعاتهم البريئة وألعابهم الجميلة. إن الزمن عاد يرهقهم ويلهب ظهورهم ليكدوا منذ الحداثة ... وإن غلب الزمان كله لفي كفة، وفي الكفة الأخرى قانون التعليم الإلزامي الذي ينتزع الأطفال من العمل، فينتزع بذلك لقيمات من أفواههم . ثم لا يعطيهم العلم ولا يعطيهم الطعام!



الرحيل

آن له أن يهجر القرية، فما عاد له فيها بقاء.

إن هناك مهمة تنتظره. إنه مجند أعد للكفاح ... مجند لهذه المهمة التي أعدتها له أمه وأخفتها عنه، منذ أول يوم ذهب فيه إلى المدرسة، ثم كشفت له عنها يوم دخل عليها فرآها تبكي! إن عليه أن يسترجع للأسرة ما تفقده من مركز ومال!

تلك كانت الكلمات التي سمعها من أمه وهي تعده للرحيل ... للسفر إلى القاهرة عند خاله ليتعلم. فلقد بدأ يراهق، وغادر مدرسة القرية منذ عامين، ولولا الثورة وانقطاع المواصلات واضطراب الأحوال لسافر منذ ذلك الحين.

ولكن ها هي ذى الحالة تهدأ، وساعده هو يشتد، والمهمة التي جند من أجلها تستعجله، فليسافر على بركة الله!

* * *

وتسامع بعض الصديقات من نسوة القرية بالخبر، فحضرن، وكأنما كن على اتفاق سابق فيما يقلن ... إن ألسنتهن جميعاً لتنطق بكلمات متقاربات.

مبروك يا أختي مبروك. إن هذا الصغير هو الذي سيرجع ما ضاع كله. وسيكون بإذن الله شأنه شأن ... فلان

كان هذا الرجل هو المثل في محيط القرية. أنفق عليه والده بسخاء حتى حصل على شهادته العالية في الوقت الذي كادت ثروة الوالد فيه تنتهي، ثم «فتح الله عليه» كما يقولون في القرية، فطار صيته، وحالفه الحظ، واسترجع الثروة الضائعة، وزاد عليها أضعافاً ... وكان في قريته وما أحاط بها من القرى، مثلا للفرج بعد الشدة، ولجبر خاطر البيوت الطيبة بعد الانحدار.

• • •

وكان كل شيء حول رحلة الفتى يوحي بأن له مهمة عظمى، حتى لكأنه ذاهب لفتح عكاء ...! ولكن هذا كله شيء، ولهفة الوالدين على فراقه شيء آخر ...

لقد أحست أمه — وهي التي ظلت تستعجل رحلته، وتهيء لها نفسها، وتحيطها بالأحلام — لقد أحست الآن فقط أن الفراق الحقيقي شيء غير الفراق في الخيال.

أما الوالد، فقد ظل متماسكا متجملا ما ظل صامتاً، فإذا تحدث اختنقت في صوته الكلمات، فصمت ولم يكمل خشية من الافتضاح.

وأعدت له الأم طعام الإفطار من طعام لبني يشتهيه، يسمونه في القرية «رشتة» وهي خيوط من عجينة القمح التي تدحى فطائر، ثم تطبق، ثم تخرط بالسكين بطريقة خاصة، فتصبح خيوطاً رفيعة، تنضج في اللبن والسكر، ويوضع عليها السمن أو الزبد في الصباح!

كانت قد أعدت له هذا الطعام ليفطر ، ويفطروا معه جميعاً...
وكان الترتيب أن يسافر إلى القاهرة مع ذلك الأفندي الذي يتعلم في الحقوق في السنة النهائية، والذي تربطهم به صلة المصاهرة العائلية ليسلمه إلى خاله، رغبة في زيادة الاطمئنان عليه في السفر. وكان هذا الأفندي قد اتفق مع طالب أزهري على السفر في موعد واحد كذلك، قطعاً للوقت الطويل الذي يستغرقه القطار .

وبينما الفتى يجهز متاعه — وما كاد — يطرق الباب ذانك الطارقان يطلبانه للركوب، فقد حان الموعد لإدراك القطار .

وكان الفتى مختلط الأحاسيس، موزع النفس، شارد الفكر ، لا يدري أهو مستبشر بالسفر إلى القاهرة التي حلم بها سنوات، أم هو آسٍ على فراق عالمه الذي صاحبه سنوات ...

فلما جاءته الدعوة أنقذته من شروده، فاندفع يسلم على أهله واحداً واحداً، واحتضنته أمه، وألصقته بصدرها كأنما تودعه كل حرارة القلب الملهوف، ولم تطلقه إلا وأبوه ينتزعه منها برفق، وتختنق في حلقه الكلمات، لأن الطرق يتوالى والنداء...

ثم خرج ... وخرج والده يودعه، ويستعجل وداعه، ليفرج عن نفسه، ويفصح في حرية عما يكتم من أشجان .

ونظرت أمه وأختاه إلى الصحفة التي كانت معدة للفطور... نظرن إليها كأنما هي آخر ذكرى للفتى المسافر ... وطال نظرهن إليها وهن مشدوهات ...

إنها ذكرى مقدسة . أو كنز مرصود !

وعاد الوالد من الوداع .

قالت الأم والحروف ترتعش على لسانها :

ـ سافر ؟

قال الوالد :

ـ بسلامة الله !

وانفجر يبكي كالأطفال ! والأم الشجاعة تنسى أشجانها وتعزيه ! ثم تخلو إلى نفسها لتنفجر بالبكاء !

فهرس



جدة – شارع قابل – عمارة الشربتلي – شقة ٣٠/٣١
ص . ب ٢٠٤٣ – تلفون ٤٠٤٣ – برقياً نشر دار

السعر : ٣ ريالات سعودية